سلسلة المعارف الإسلامية (١٢)

البحث عن علم الدين

تأليف

السيّد محمّد ضياء آبادى

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة المعارف الإسلامية ١٢

البحث
عن علم الدّين

تأليف

آية الله السيّد محمّد ضياء آبادى

نقله إلى العربية

السيّد محمّد أسد الموسوي الصافي

ضیاءآبادی، محمّد، ۱۳۰۹ـ
در جستجوی علم دین، عربی.
البحث عن علم الدّین/ تألیف محمّد ضیاءآبادی؛ نقله الی العربیه محمّد اسد الموسوی الصافی.
تهران: مؤسّسه بنیاد خیریّه الزّهراءﷺ ۱۳۸۹.
۱۶۶ص. سلسله المعارف الاسلامیه؛۱۲.
ISBN: 978-600-170-019-4
۷۰۰۰ ریال.
فیپا.
عربی
کتابنامه به صورت زیرنویس.
اسلام ـ ـ بررسی و شناخت.
اسلام ـ ـ عقاید ـ ـ به زبان ساده
اجتهاد و تقلید
موسوی صافی، محمّداسد
BP۱۱/ض۹د۴۰۴۳ / ۱۳۸۹
۲۲۵۰۵۳۱

چاپ و تکثیر این کتاب با حفظ محتوا، رعایت کیفیّت و ملاحظه‌ی موارد ذیل برای دلسوختگان و علاقه‌مندان به گسترش معارف دینی با کسب **مجوّز کتبی از دفتر امور فرهنگی بنیاد خیریّه الزّهراءﷺ** بلامانع است:

۱) در هر نوبت چاپ تعداد ۱۰ نسخه به نشانی انتشارات بنیاد خیریّه الزّهراءﷺ ارسال شود.

۲) هرگونه تغییر در محتوا و کیفیّت ظاهری با اجازه‌ی دفتر امور فرهنگی می‌باشد.

۳) مطالب فوق در هر نوبت چاپ درج شود.

۴) قیمت متناسب با پشت جلد لحاظ گردد.

تلفن: ۵۵۳۸۰۵۳۴ـ۰۲۱

انتشارات بنیاد خیریه الزّهراء

البحث عن علم الدّین
تألیف: سیّدمحمّد ضیاءآبادی
ترجمه: محمّد اسد موسوی صافی
انتشارات بنیاد خیریه الزّهراءﷺ
چاپ اوّل: ۱۳۹۰
شمارگان: ۳۰۰۰ نسخه
شابک: ۴ ـ ۰۱۹ ـ ۱۷۰ ـ ۶۰۰ ـ ۹۷۸
قیمت: ۷۰۰ تومان
چاپخانه: غزال

❀❀❀

نشانی: تهران ـ کارگر جنوبی ـ چهارراه لشگر ـ خیابان شهید معیّری ـ کوچه‌ارجمند ـ پلاک۴

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمدلله ربّ العالمين، و صلّى الله على

اقرب الوسائل إليه محمّد وآله الطّاهرين

واللّعنة الدّائمة على أعدائهم أجمعين

إلى يوم الدّين.

مُقَدِّمَة

فضل العلم وشرفه:

إن فضل العلم وشرفه واضح ومسلّم بحيث لا يحتاج معه لاستدلال أو إقامة برهان.

يعطي العلم للإنسان شرفا لا يحتاج معه إلى عامل شرف آخر، في حال أن الجاهل يحس بعقدة الانحطاط و الذّلة في نفسه فلا يستطيع بواسطة أي عامل شرف آخر أن يرفع هذه العقدة عن نفسه.

وأفضل ما يمكن الاستدلال به هو قول أمير المؤمنين (عليه السلام): «كَفى بِالعِلْمِ شَرَفاً أنْ يَدَّعِيَهُ مَنْ لا يُحْسِنُهُ وَ يَفْرَحُ إذا نُسِبَ إلَيْهِ، وَكَفى بِالجَهْلِ ذَمّاً يَبْرَأُ مِنْهُ مَنْ هُوَ فِيهِ».[1]

فيكفي العلم شرفا ـ على باقي موجبات الشرف ـ أن يدّعيه من هو ليس بعالم، ويفرح إذا نسب إليه العلم. ويكفي الجهل ذمّاً، أن يبرأ منه مَن هو واقع فيه؛ تنزيها لنفسه من حقارة هذه الصفة، وسترا لشين هذا العيب.

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ١، الصفحة ١٨٥، الحديث ١٠٧.

مفرح ولكن في نفس الوقت محزن!

نحن نعيش في عصر تتزايد فيه - بفضل الله تعالى - رغبة الناس و بالخصوص فئة الشباب لتحصيل العلوم والمعارف الإسلامية وأحكام القرآن الكريم، ولذا فهذه الظاهرة تبعث في النفس السرور، و لله الحمد والمنّة.

من جانب آخر، يوجد في كل عصر وزمان وبين كل مجموعة من الناس أشخاص أو فئات تسيطر عليهم نزعات حب الجاه والمقام والرئاسة والشهرة، فيسعون للوصول إلى هذه الأهواء المضلة بأي ثمن وبأي شكل من الأشكال، مما يؤدي إلى انزلاق العديد من الناس في شباكهم الشيطانية.

وفئة أخرى من الناس يعبّر عنها مولانا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بقوله: «هَمَجٌ رَعاعٌ؛ أَتْباعُ كُلِّ ناعِقٍ، يَميلُونَ مَعَ كُلِّ ريحٍ».[1]

فالهمج الرعاع هم الذين لا يميزون بين الحق والباطل يتبعون كل من يدعوهم، يميلون مع كل ريح تهب بلا هدى ولا كتاب منير.

إن هذا الصنف من الناس وبدون أن يفهموا ويميزوا يتبعون الصنف الأول، ويكونون جسرا يوصل أصحاب النفوس المريضة والنزعات الشيطانية إلى مقاصدهم وأهدافهم، بل ويشجعونهم ويحرضونهم ويساعدونهم.

وللأسف، نشاهد وعلى مر التاريخ أن هؤلاء ـ أي: أتباع الشيطان، و الهمج الرعاع ـ كانوا يشكّلون معا منشأ كل شرٍّ وفساد في الأرض.

يقول مولى المتقين علي (عليه السلام): «قَصَمَ ظَهْري: عالِمٌ مُتَهَتِّكٌ، وَجاهِلٌ

---

(١) نهج البلاغة: باب الحكم، الحكمة ١٣٩.

مَتَنَسّكٌ».[١]

أي: قصم ظهري اثنان: عالم متهتك لا تقوى له في قول أو فعل، وجاهل متنسك متعبد لا محتوى له.

ويروى عنه (عليه السلام) أيضا انه قال: «إِنَّ أَخْوَفَ عَلى هذه الأُمَّةِ مِنَ الدَّجّالِ(*)، أَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ؛ وَهُمْ رُؤَساءُ أَهْلِ البِدَعِ».[٢]

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث آخر: «فَاتَّقُوا الفاسِقَ مِنَ العُلَماءِ وَالجاهِلَ مِنَ المُتَعَبّدينَ، أُولئِكَ فِتْنَةُ كُلّ مَفْتونٍ. فَإِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: يا عَلِيُّ! هَلاكُ أُمَّتِي عَلى يَدَيْ كُل مُنافِقٍ عَليمِ اللسانِ».[٣]

والحق أن هذه الفئة متواجدة في كل زمان ومكان، فمن اجل أن يسيطر أتباع الشيطان على أفكار البسطاء والمغفلين من الناس، يسعون بشتى الطرق لتحقيق غاياتهم. ومن جملة طرق نفوذ طلاب الجاه وأهل الحيلة إلى قلوب البسطاء هي قضية صحوة الشباب واندفاعهم لتعلم العلوم الإسلامية والتعرف على الحقائق الإلهية.

نعم، إن منشأ الحاجة لطلب العلم هي الفطرة الإنسانية، وتزداد هذه الرغبة قوة مع تأكيد وترغيب القرآن الكريم والنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) والمعصومين (عليهم السلام)، فتنكّر لذلك حزب الشيطان متلبسا بلباس أهل العلم

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ١١١، الحديث ٢٥.

(*) الدجّال: رجل كذّاب، يخرج آخر الزّمان ليضل النّاس.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٦٣٢.

(٣) خصال الصدوق: الصفحة ٦٩، و بحار الأنوار: الجزء ٢، الصفحة ١٠٦، الحديث٣.

لعرض بضائعه الفاسدة، وهي عبارة عن مجموعة من المطالب المضلة والضعيفة التي لا أساس لها، ما هي إلا نتيجة أوهام وخيالات المنحرفين من الغابرين، فيلبسونها بشكل ماكر وتلفيق مزيف بظواهر الشرع مستخدمين آيات متشابهة، وأحاديث مبهمة، فيمرروها للبسطاء والسطحيين بعيدا عن نظر العلماء الثاقب الدقيق، مما يؤدي بهؤلاء الضعفاء إلى الانحراف على صعيدي العقيدة والعمل، وبالتالي يحرمون من السعادة الأبدية.

ولذا، فإن موضوع الاتجاه المتزايد للشباب نحو طلب العلم وبالخصوص العلوم الإسلامية، ففي نفس الوقت الذي هو مفرح وباعث على السرور، فهو أيضا مؤسف ومحزن لاستغلال المضلين لهذه الرغبة.

أي علم وأي معلم؟

ولهذا، وفي خضم الظروف الخطرة والحساسة التي يمر بها المسلمون، فمن الواجب على الجيل الشاب التالي:

أولا: أن يحدّدوا أي العلوم لها المرتبة والأهمية والأولوية القصوى، والتأثير المباشر في مستقبلهم الإنساني والديني، ليطلبوها ويتعلموها ولا يدّخرون جهدا إلا وبذلوه لتحصيلها، ولا يتهاونوا في طلبها أبدا.

ثانيا: أن يبحثوا عن معلّم فاضل، وأستاذ كامل، قادر على إصلاح الزلل، ملجأ للضعفاء، خبيرا بصيرا، وفي نفس الوقت وثيقا وأمينا، قادرا على أن يسير على الصراط القويم، متجنبا فخاخ من يصطاد بالماء العكر.

الغاية من الكتاب

لقد أعددت هذا الكتيّب المختصر من اجل أن يقف كل مسلم على العلم الذي يجب طلبه وتحصيله، بالإضافة إلى بيان أهم شروط المرجعية الدينية في الأمة الإسلامية، وبالخصوص تلك الأمة السائرة على خطى أهل البيت (عليهم السلام).

وتطرّقت إلى قضيتين مهمتين، هما: الاجتهاد والتقليد، كما حذرت من استشراء مرض الفكر المخالف لأهل البيت (عليهم السلام) في أوساط البسطاء والسذّج من الناس، كما تطرقت في نهاية الكتاب إلى أحد الأمراض الخطيرة وهي النزعة الصوفية، ولزوم مواجهة هذه التيارات الضالة المضلة.

على أمل أن تكون هذه الكلمات مدعاة لتذكر عباد الله، فيسلكوا - إن شاء الله - طريق الهداية، المكلل بالمغفرة والرحمة الواسعة.

إِنَّ رَبَّنا لَذُو فَضْلٍ عَظيم وَ إِنَّه لَغَفُورٌ رَحيم

السيّد محمّد ضياء آبادي

١٤١٥ هجري قمري

أي العلوم يجب طلبها؟

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَة عَلَى كُلّ مُسْلِمٍ، ألا إنَّ اللهَ يُحِبُّ بُغَاة العِلْمِ».[1]

إن طلب العلم واجب على كل فرد مسلم، إن الله تعالى يحب طلاب العلم.

نستفيد من هذا الحديث الشريف أمرين:

الأول: أن طلب العلم واجب من الله، كوجوب الفرائض والواجبات: كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والخمس...

بحيث أفردت كتب المجاميع الروائية أبوابا خاصة ومهمة بعنوان: (باب فرض العلم ووجوب طلبه).[2]

فطلب العلم واجب شرعي وتكليف حتمي على كل فرد مسلم.

الثاني: أن هذا التكليف والواجب الشرعي، لا ينحصر بفرد معين دون غيره، أو بظروف وأجواء خاصة دون سواها، فيجب طلب العلم على كل فرد مسلم في كل زمان ومكان، فكلمة «كُلّ مُسْلِمٍ» الواردة في الحديث

---

(١) الكافي: الجزء ١، الصفحة ٣٠، الحديث ١.

(٢) راجع: أصول الكافي، و بحار الأنوار.

الشريف تشمل كل فرد مسلم، فهي بالنتيجة تدل على عموم التكليف.

إذن، فلا دخل لقضية الجنس في الموضوع، فالرجال والنساء في الحكم سواء، ولا يُتوهّم أن كلمة «مُسْلِم» تختص بالرجال دون النساء، حيث يطلق الفقهاء على مثل هذه العبارات مصطلح (إلغاء الخصوصية)، ويترتب الحكم حينئذٍ على الحيثية العامة.

ولتوضيح ذلك نستعرض عدة أمثلة:

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ مِنْ يَدِهِ وَلِسانِهِ».[1]

فهل يصح القول: بما أن كلمة «المُسْلِمُ» مذكرة، فإن المقصود هو تحديد وتعيين المسؤولية على الرجل المسلم فقط، ولا يشمل هذا الخطاب المرأة المسلمة؟!

مثال آخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، جاءت في القرآن الكريم بصيغة المذكر، فهل يصح القول: أنها لا تشمل المرأة؟!

أو كما ورد في الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، فكلمة (ٱلْمَرْءُ) مذكرة، فهل يبقى مجال للتوهّم أن تجسم أعمال الإنسان يوم القيامة مختص بالرجال دون النساء؟!

أو أن آية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، جاءت بصيغة المذكر، فهل يمكن القول: أن التقوى - والتي هي معيار الكرامة عند الله - تختص بالرجال، وليس لها علاقة بالنساء؟!

---

(١) جامع السّعادات: الجزء ٢، الصفحة ٢١٠.

من البديهي أن جميع الموارد آنفة الذكر تلغي خصوصية الجنس، ويراد منها عموم الرجال والنساء.

وعلى هذا الأساس فإن طلب العلم في الحديث الشريف لا يختص بالرجال، بل هو شامل لمطلق المسلم، أي: كل فرد مسلم، رجلا كان أو امرأة.

إضافة لهذا، فقد ورد في بعض الروايات كلمة «ومسلمة» بعد كلمة «مسلم»، حيث تدل صراحة على عموم التكليف.

الثالث: المطلب الآخر الذي يجب التطرق إليه لبيان الحديث الشريف، هو: أي علم يجب تحصيله وطلبه على كل فرد مسلم؟

ينقل الفيض الكاشاني في كتابه المحجة البيضاء عن الغزالي قوله: «واختلف الناس في العلم الّذي هو فرض عين على كلّ مسلم وتحزّبوا فيه أكثر من عشرين فرقة و لا نطيل بنقل التفصيل ولكن حاصله أنّ كلّ فريق نزّل الوجوب على العلم الّذي هو بصدده فقال المتكلّمون: هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات اللّه سبحانه و صفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال و الحرام و ما يحرم من المعاملات وما يحلّ و عنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة، وقال علماء الأخلاق: هو معرفة الفضائل والرذائل الأخلاقية وطرق التزكية وتهذيب النفس، وقال المفسّرون والمحدّثون: هو علم الكتاب و السنّة إذ بهما يتوصّل إلى العلوم كلّها».

بعد ذلك يقول الغزالي ما حاصله: «من وجهة نظر الإسلام فإن الواجب وغير الواجب من العلوم على الأمة الإسلامية هو ما يتوقف على مدى

ضرورة وعدم ضرورة متعلق هذا العلم أو ذاك، أي: كل ما له صلة بمصالح المسلمين الضرورية الدنيوية أو الأخروية فهو واجب وجوبا كفائيا أو عينيا، وكل ما لم يصل إلى الضرورة القصوى، وكان مشروعا، فهو إما مستحب وإما مباح».

من الواضح أن هذا البيان متين ومتقن بحد ذاته، ولا شك أن طلب أي علم بحسب مقتضيات كل زمان، وكونه دخيلا في تأمين مصالح المسلمين وحفظ كيانهم وعزتهم أمام العالم، فريضة وواجب عام، فبالإضافة إلى وجوب طلب العلوم ذات العلاقة بالعقائد والأخلاق والأعمال العبادية، يجب كذلك طلب العلوم ذات الصلة بالشؤون المختلفة للحياة، مثل: السياسة والاقتصاد والثقافة والصحة ونحوها، لأجل تحقيق الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن غير المسلمين، فطلب العلم فريضة جماعية وواجب عام.

يقول تعالى: ﴿... وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.[1]

هذه الآية الكريمة تكفي لتحريك الحس الديني لأُمة الإسلام العظيمة، ولغلي دماء الشرف والعزة في عروقها، لتنهض بهمّة عالية، يحيطها التوفيق الإلهي، لصناعة صحوة علمية وثقافية واسعة، تشمل جميع العلوم والصناعات، وتربي أفضل المتخصصين والحرفيين والمهرة، فتمسح عن

(١) سورة النساء: الآية ١٤١.

وجهها غبار الذّلة والحاجة، يقول تبارك وتعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا... ﴾[١].

فالذين يسعون في سبيل الله ويجاهدون من اجل رضاه، يهديهم ربهم إلى طريقه؛ طريق نيل الشرف والعزة.

نعم، إن هذا المطلب مسلّم به، يؤيده القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولكن يجب التمعّن: هل أن الحديث - الذي هو مورد البحث - ناظر إلى هذا المطلب؟

إن ظاهر الحديث الشريف يشير إلى أن تلك العلوم ذات الصلة بالعقائد والأخلاق والأحكام هي الواجبة على كل فرد مسلم، وان كلمة «كل مسلم» قرينة على أن المراد من (عِلمٌ مَفروُض الطَّلَب) ليس جميع العلوم؛ لأن الإنسان لا يمكنه تعلم جميع العلوم ذات الصلة بالحياة الشخصية: كالتجارة، والفلاحة، والطب، والنجارة، والعمارة، والحدادة، والخياطة، ونحوها، فضلاً عن تعلم جميع العلوم المتعلقة بالحياة الاجتماعية: كسياسة الأمة، واقتصادها، وثقافتها، وأمنها، ونحو ذلك.

من الممكن أن يقال أن المقصود هو الطلب الجمعي لا الفردي، أي: يجب على المجتمع والأمة الإسلامية أن توزّع وتقسّم جميع العلوم بشكل يمكن تحصيلها، لا أن تكون وظيفة كل فرد تعلم جميع العلوم.

ويمكن الإجابة على ذلك: بأن عبارة (كل مسلم) تعني كل فرد؛ وبعبارة

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

علمية: «إنها للعام الاستغراقي، لا للعام المجموعي أو البدلي».

وتفصيل ذلك: إن جملة (فريضة على كل مسلم) تدل على الوجوب العيني لا الكفائي؛ بقرينة (كل)، وبما انه لا يمكن تكليف جميع الأفراد تكليفا عينيا بتحصيل جميع العلوم، إذن المقصود من الحديث الشريف هو: لا بد أن يكون تحصيل قسم خاص من العلوم واجبا بحيث يناسب ويتسق مع الوجوب العيني، وهذا القسم الخاص لا بد أن يكون (علم العقائد والأخلاق والأحكام)؛ وذلك بقرينة (كل مسلم).

إن كل فرد مسلم بما هو مسلم ومعتقد بالمبدأ والمعاد، ومؤمن بالشريعة السماوية، ومعتقد أن طريق سعادته الأبدية رهن تحكيم العقائد الحقة والعمل بالشريعة الإلهية، فيجب عليه عقلا وقبل كل شيء معرفة معتقداته ومن ثم تعلم الأحكام التي تترتب على هذه المعتقدات ليطبقها بشكل صحيح، فيضمن سعادته الأبدية، وعليه فإن العلم الذي يجب طلبه وتحصيله على كل فرد مسلم - بالدرجة الأولى - هو علم أصول العقائد؛ أي: معرفة الله سبحانه وصفاته، ونبوة الأنبياء وإمامة أئمة الهدى (عليهم السلام)، وأن الحساب حق، والثواب والعقاب حق. وبالدرجة الثانية يأتي: العلم بفروع الأحكام الشرعية (الفقه)؛ أي: تلك القوانين التي شرّعها الله تبارك وتعالى لتنظيم جميع شؤون الحياة، والتي وصلت إلينا بواسطة بلاغ الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله).

روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) انه بعد أن ذكر حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله): (طَلَبُ العِلْمِ فَريضَة...)، قال: «أَيْ: عِلْمُ التَّقْوى وَاليَقِين».

أي: أن المقصود من العلم الواجب تحصيله الوارد في حديث رسول‌الله(صلى الله عليه وآله): هو علم التقوى واليقين.

يقول العلامة المجلسي (قدس سره) في بيان تفسير الإمام الصادق (عليه السلام) لحديث رسول الله (صلى الله عليه وآله): «عِلْمُ التَّقْوى: هُوَ العِلْمُ بِالأوامِرِ وَالنَّواهِي؛ وَالتَّكاليفِ الَّتِي يُتَّقَى بِها مِنْ عَذابِ الله، وَعِلْمُ اليَقِينِ: عِلْمُ ما تَتَعَلَّقُ مِنَ المَعارِفِ بِأُصُولِ الدّين».[1]

يقول سليم بن قيس: سمعت عليا (عليه السلام) يقول: «العِلْمُ عِلْمانِ: عِلْمٌ لا يَسَعُ النّاسَ إلّا النَّظَرُ فِيهِ؛ وَهُوَ صِبْغَة الإسْلامِ، وَعِلْمٌ يَسَعُ النّاسَ تَرْكُ النَّظَرِ فِيهِ؛ وَهُوَ قُدْرَة الله عَزَّ وَجَلَّ».[2]

يقسّم لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) العلم إلى قسمين:

الأول: هو العلم الذي لا يجوز أن يترك الناس تعلمه، بل يجب على جميع المسلمين رجالا ونساء تعلمه؛ وهو العلم الذي يضفي صبغة الإسلام فيكون به الإنسان مسلما، و بدونه لا يكون مسلما، ومن الواضح انه علم العقائد والأحكام.

الثاني: هو العلم الذي لا يجب على الجميع تعلمه؛ كالعلم بالكائنات، وخواص المخلوقات، ومعرفة عظمة الله تعالى شأنه وعز سلطانه.

يتبيّن من خلال ما مرّ: أن العلم الذي يجب طلبه وتحصيله على كل فرد

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ٣٢.

(٢) خصال الصدوق: باب الاثنين، الحديث ٣٠.

مسلم هو: علم العقائد والأحكام الشرعية.

الوجوب العيني والكفائي في تحصيل علم العقائد والأحكام

إن لعلمي العقائد والأحكام من جهة وجوب تحصيلهما مرتبتين: الوجوب العيني والوجوب الكفائي.

فتحصيل علم العقائد إلى حد يحرز به الاعتقاد الجازم واجب عيني، حتى وان لم يصل المكلف إلى مستوى يستطيع معه دفع الشبهات، فتحصيل هذا المقدار من العلم واجب عيني على كل فرد مسلم، رجلا كان أو امرأة، عالما أو غير عالم، فلا يجوز التواني والتهاون في أمر الطلب وتحصيل هذا المقدار من العلم، أما تحصيل العقائد إلى حد يكون صاحبها قادرا على دحض الشكوك ورفع الشبهات عن الناس، فليس بواجب عيني بل هو واجب كفائي.

فإذا قام فرد أو أفراد من الأمة بتحصيل هذا المقدار من العلم، واستطاع بواسطته أن يدافع عن عقائد الأمة، وأن يلجم الشيطان، ويصد هجوم إبليس والملحدين، فيسقط التكليف حينئذ عن عهدة باقي المكلفين، ولا يلزم إلا تحصيل المعتقدات على المستوى الشخصي السابق الذكر.

أما مقدار الواجب العيني من تحصيل العلم بالأحكام الشرعية (الفقه)، فيخضع لطبيعة الأوضاع: من سن وشغل وسفر وحضر ونحوها من الخصوصيات، فيجب على المكلف تعلم أحكام المسائل الابتلائية، أو المسائل التي يمكن أن يبتلى بها من عبادات أو معاملات، لئلا يقع في الحيرة والجهل في مقام العمل.

إن هذا المقدار من تحصيل العلم بالأحكام الفرعية العملية واجب على

جميع أفراد المسلمين رجالا ونساء، علماء و غير علماء، سواء كان تحصيل هذا العلم عن طريق الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية، أو عن طريق تقليد مجتهد جامع لشرائط الإفتاء، أما مقدار الواجب الكفائي في هذا النوع من العلم: هو الوصول إلى مرتبة الاجتهاد وتحصيل الملكة لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، ويصطلح عليه فقهيّا بالاجتهاد، ويسمى صاحبه بالفقيه والمجتهد.

إن تحصيل هذا المقدار من العلم بالأحكام الشرعية مثله كمثل باقي الواجبات الكفائية، ولكنّ الوجوب هنا ليس وجوبا عينيا، بل هو وجوب كفائي؛ أي: إذا قام شخص أو أشخاص بتحصيله بالقدر الكافي، بحيث ارتفعت به حاجة الأمة الإسلامية، فيسقط التكليف حينئذ عن باقي أفراد المسلمين، وإلا فإن جميع أفراد الأمة الإسلامية يجب عليهم تحصيله وطلبه، وفي حال تركه يكون الجميع مسؤولا أمام الله عز وجل، ومحكوما عليهم بالعذاب والعقاب.

وبلا شك، فإن الحديث الشريف كما هو واضح من بيانه، وبقرينة كلمة (كل) دال على الوجوب العيني، ولزاما ناظر بالدرجة الأساس إلى علم العقائد والأحكام الشرعية (الفقه)، فيجب على كل فرد مسلم تحصيلها وطلبها.

أما تحصيل الاختصاص في علم العقائد، واستطاعة دفع الشكوك والشبهات، والوصول إلى مرتبة الاجتهاد وملكة استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية، فهو مطلوب ومرغوب بحد ذاته من الشرع المقدس، فقد حُث عليه أيّما حث في كثير من الروايات والآيات الشريفة،

كآيـــة النفـــر: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾.[1]

فهذه الآية الكريمة، فيها دلالة صريحة على وجوب تفقه قسم من المسلمين، ومن ثم رجوعهم إلى الباقين ليستفيدوا من فقههم.

أما كلمة التفقه، فقد اشتقت من مادة (الفقه)، والفقه في اللغة بمعنى الفهم العميق والبصيرة الكاملة بشيء ما، والإطلاع على حقيقة مكنوناته، يقول الراغب الاصفهاني في مفرداته: «الفِقْهُ هُوَ التَّوَصُّلُ إلى عِلْمٍ غائِبٍ بِعِلْمٍ شاهِدٍ».

ويقول في تعريف التفقه: «تَفَقَّهَ: إذا طَلَبَهُ فَتَخَصَّصَ بِهِ».

لقد صارت آية (النفر) موردا لاستناد واستدلال العلماء العظام في مسالة الوجوب الكفائي في تحصيل مرتبة الاجتهاد والتخصص في العلوم، كما أن الروايات الشريفة ورد فيها التأكيد والحث ـ وبالخصوص على أتباع آل البيت (عليهم السلام) ـ على تحصيل العلم من اجل الدفاع عن عقيدة وإيمان الأمة، ومن جملة هذه الروايات، رواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيها: «مَنْ كانَ مِنْ شيعَتِنا عالِماً بِشَريعَتِنا فَاَخْرَجَ ضُعَفاءَ شيعَتِنا مِنْ ظُلْمَة جَهْلِهِمْ إلَى نُورِ العِلْمِ الَّذي حَبَوناهُ بِهِ جاءَ يَوْمَ القِيامَة عَلى رَأْسِهِ تاجٌ مِنْ نُورٍ يُضيءُ لأهْلِ جَميعِ تِلْكَ العَرَصاتِ وَ عَلَيْهِ حُلَّة لا يَقُومُ لأقَلِّ سِلْكٍ مِنْهَا الدُّنْيا بِحَذافيرِها. ثُمَّ يُنادي مُنادٍ مِنْ عِنْدِ الله تَعالى: يا عِبادَ الله! هذا عالِمٌ مِنْ تَلامِذَة آلِ مُحَمَّدٍ. اَلا فَمَنْ أخْرَجَهُ مِنَ الدُّنْيا عَنْ حَيْرَة جَهْلِهِ

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

فَلْيَتَشَبَّثْ بِنُورِهِ لِيُخْرِجَهُ مِنْ حَيْرَةِ ظُلْمَةِ هذِهِ السعَرَصاتِ إِلَى نُزْهَةِ الجِنانِ. فَيُخْرِجُ مَنْ كانَ عَلَّمَهُ فِي الدُّنْيا خَيْراً أو فَتَحَ عَنْ قَلْبِهِ مِنَ الجَهْلِ قُفْلاً أو أَوْضَحَ لَهُ عَنْ شُبْهَةٍ».[١]

وروي عن مولانا الصادق (عليه السلام):«عُلَماءُ شيعَتِنا مُرابِطُونَ بِالثَّغْرِ الَّذِي يَلِي إِبْلِيسَ وَعَفارِيتَهُ يَمْنَعُونَهُمْ عَنِ الخُرُوجِ عَلى ضُعَفاءِ شيعَتِنا وَ عَنْ أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ وَ شيعتُهُ النَّواصِبُ. أَلا فَمَنِ انْتَصَبَ لِذلِكَ مِنْ شيعَتِنا كانَ أَفْضَلَ مِمَّنْ جاهَدَ الرُّومَ وَالتُّرْكَ وَ الخَزَرَ ألف ألف مَرَّة لأَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ أَدْيانِ مُحِبّينا وَ ذلِكَ يَدْفَعُ عَنْ أَبْدانِهِمْ».[٢]

وروي عن إمامنا الهادي (عليه السلام) انه قال: «لَوْ لا مَنْ يَبْقى بَعْدَ غَيْبَةِ قائِمِنا مِنَ العُلَماءِ الدّاعينَ إِلَيْهِ وَالدّالّينَ عَلَيْهِ وَ الذّابّينَ عَنْ دِينِهِ بِحُجَجِ اللهِ تَعالى وَالمُنْقِذِينَ لِضُعَفاءِ عِبادِ اللهِ مِنْ شِباكِ إِبْلِيس ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ وَ مَرَدَتِهِ وَ مِنْ فِخاخِ النَّواصِبِ لَما بَقِيَ أَحَدٌ إلا ارْتَدَّ عَنْ دِينِ اللهِ تَعالى. وَلكِنَّهُمْ الَّذِينَ يُمْسِكُونَ أَزِمّة قُلُوبِ ضُعَفاءِ الشّيعَةِ كَما يُمْسِكُ صاحِبُ السَّفينَةِ سُكّانَها. أُولئِكَ هُمُ الأَفْضَلونَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».[٣]

إن هذه الأحاديث فيها خطاب للأمة الإسلامية بشكل عام، وناظرة إلى الوجوب الكفائي الجمعي بالنسبة إلى العلوم الضرورية في الحياة المادية والمعنوية، فينبغي للمجتمع المسلم أن يحقق الاكتفاء الذاتي في جميع مجالات

---

(١) المحجّة البيضاء: الجزء ١، الصفحة ٢٩.

(٢) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ٥٧.

(٣) المحجّة البيضاء: الجزء ١، الصفحة ٣٢.

العلوم التي يحتاجها، مواكبةً لكل عصر، بل ينبغي أن يكون سبّاقا في جميع مجالات العلم والصناعة والفن ونحو ذلك، ولا يعتريه الإحساس بالحاجة للآخرين، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «اُطْلُبُوا الـعِلْـمَ مِنَ الـمَهْدِ إلَى الـلَّحْدِ».

أي: أن تحصيل العلم ليس له زمان معين أو مرحلة خاصة، فينبغي للمسلم أن يسعى لطلب العلم وكسب المعرفة في جميع مراحل حياته.

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: «اُطْلُبُوا الـعِلْـمَ وَ لَوْ بِالصّينِ».[1]

في هذا الحديث إشارة إلى تعميم السعي لتحصيل العلم حيثما كان، كما أن الحديث السابق فيه إشارة إلى السعي لطلب العلم في كل زمان.

إن وجوب طلب العلم من وجهة نظر الشرع المقدس لا يقتصر على زمان أو مكان معين، فلو استلزم طلب العلم السفر إلى ابعد بقاع العالم فينبغي للمسلم ذلك، و الظاهر أن علة ذكر الصين في هذا الحديث الشريف يمكن أن يرجع لأمرين: الأول: أن الصين كانت في ذلك الزمان أقصى منطقة وصل إليها الإنسان شرقا، والثاني: أن الصين كانت أحد المراكز العلمية المشهورة آنذاك.

روى عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) انه قال: «العِلْمُ مَخْزُونٌ عِنْدَ أهله وَقَدْ أُمِرْتُمْ بِطَلَبِهِ مِنْهُمْ».[2]

وروي عن الإمام السجّاد (عليه السلام) انه قال: «لَوْ يَعْلَمُ النّاسُ ما في طَلَبِ

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ١، الصفحة ١٧٧.

(٢) همان، الحديث ٥٢.

الـعِلْـمِ لَطَلَبُوهُ وَ لَوْ بِسَفْكِ الـمُهَجِ وَخَوْضِ اللُّجَجِ».[١]

لقد وسّع هذا الحديث الشريف نطاق بركات طلب العلم، فإضافة إلى عالم الدنيا يشمل عالم ما بعد الموت، فمتى تعرض طالب العلم للموت أو الغرق في أعماق البحار والمحيطات، فسيحصل على السعادة الأبدية كجزاء له في دار الآخرة.

كما أن الشرع لم يضع أي عوائق وموانع في طريق التعلم، ولم يشترط أن يكون العالم أو المركز العلمي الذي يحتاج المسلمون إلى علمه، مسلما أو إسلاميا.

روي عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) انه قال: «كَلِمَة الحِكْمَة ضالَّة الـمُؤمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَها فَهُوَ أحَقُّ بِها».[٢]

وروي عن مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال: «الحِكْمَة ضالَّة الـمُؤمِنِ. فَخُذِ الحِكْمَة وَ لَوْ مِنْ أهْلِ النفاقِ».[٣]

من خلال هذه الأحاديث، يتبيّن أن الحكمة أي المعلومة الصحيحة والنافعة في حياة الإنسان المادية أو المعنوية يعبر عنها بـ(ضالة المؤمن)، وأنه هو صاحبها الحقيقي (وأحق بها)، ومن الطبيعي أنّ من يفقد شيئا عزيزا بحث عنه أينما كان وأنّى كان، ومتى علم بمكانه حداه الشوق لإيجاده، فلا يسبقه إليه أحد، لأنه صاحبه وأولى به وأحق من غيره.

نعم، يجب على كل مؤمن أن يطلب العلم والحكمة طلبا حثيثا «فَحَيْثُ

---

(١) المصدرالسابق: الجزء ١، الصفحة ١٨٥، الحديث١٠٩.

(٢) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ٩٩، الحديث٥٨.

(٣) نهج البلاغة: باب الحكم، الحكمة٧٧.

وَجَدَها أَخَذَها وَهُوَ أَحَقُّ بِها».

إلى هنا كان البحث في بيان حديث (طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَة...)، وبيّنا المقصود من العلم الذي يجب طلبه، واتضح معنى الوجوب الكفائي والعيني بخصوص طلب العلم.

سنتطرق - بعون الله - في الفصول التالية إلى أبحاث ذات علاقة بهذا الحديث الشريف، وسنتعرض لها دراسة وتحليلا.

تحصيل أصول العقائد

تحصيل العلم بالمسائل العقائدية عن طريق الاستدلال العقلي واجب على كل مسلم وجوبا عينيّا

يجب على كل فرد مسلم (وجوبا عينيّا) أن يحصّل العلم بوجود الخالق عز وجل، وصفاته الكمالية، والإيمان بالنبوة والإمامة، وحتمية يوم القيامة، بالدليل العقلي كلٌ حسب طاقته ووسعه؛ ليصل عبر هذا العلم إلى الإيمان الراسخ.

حتى وان لم يصل إلى درجة تمكنه من: بيان معتقداته وشرحها، أو الرد على الإشكالات، أو دعوة الضال إلى جادة الحق و سبيل الرشاد، فإن تحصيل هذا المقدار من العلم والاعتقاد به واجب عيني على الجميع؛ بمعنى انه يجب أن يكون المكلف محصّلا لهذا المقدار من العلم ومعتقدا ومؤمنا به، ولا يستثنى من هذا أحد، بدءا من أكثر الناس تعمّقا كالشيخ الرئيس ابن سينا أو الشيخ الطوسي أو الفارابي وأمثالهم من الفلاسفة والمفكرين، ووصولا إلى عامة الناس؛ من عجائز يغزلن الصوف، ورعاة الأغنام، فالكل في وجوب طلب العلم سواء.

ولذا، فمن الطبيعي والبديهي بمكان، أن يكون تحصيل مثل هذا العلم سهلا يسيرا، والحق انه كذلك، فإذا كان الإنسان سليم الفطرة، بعيدا عن التعصب والعناد، سليم القلب من تعلقات الدنيا الدنية، محررا عقله من

القيود، فعندها يستطيع أن يسمع نداء الفطرة الذي يكتنفه الافتقار والحاجة، النابع من جميع نواحي وجوده، طالبا ومستمدا من اصل و مركز ومنبع الجود والكرم الوحيد في الكون، سد خلته وخلله، فإذا التفت إلى المخلوقات وجدها تنادي بنفس لسان الحاجة، تحكي قصة فقرها وافتقارها، طالبة الاستعانة والمدد من رب العالمين جل ثناؤه وعظمت نعماؤه، يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.[1]

إن هذا الفقر الذي يكتنف العالم، أوضح برهان على وجود الغني الكريم، المبدئ المعيد، الخالق المتصف بتمام صفات الكمال والجمال، الذي أغدق بفضله وكرمه على جميع مخلوقاته، فلا يمكن أن يكون خالق: الحياة والقدرة والعقل والشعور و السمع والبصر فاقدا لهذه الصفات، إذ أن (فاقد الشيء لا يعطيه).

يقول الشاعر:

الغيمة الجرداء من أي ماءٍ لا تتصف بكونها مطراء[2]

بعد الاعتقاد بصفات كمال الله تبارك وتعالى من حكمة ورحمة وعدل، نصل إلى مرتبة أخرى، وهي:

إن هذا الحكيم الرحيم العادل ينبغي أن يهدي وينظّم ويبيّن لعباده السبيل القويم، العاري من الخطأ والخلل، لتنظيم حياتهم، ويتلخص الأمر في: النبوة والإمامة المقرونة بالعصمة، والاعتقاد بحتمية تشكيل موقف للحساب

---

(١) سورة الرّحمن: الآية ٢٩.

(٢)صل البيت بالفارسية كالآتي:

خشك ابري كه بود زاب تهي ناید از وي صفت آب دهي

ليتميّز المطيع لله عن العاصي له، فيجزى المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، كل هذا في عالم الآخرة، فيحصل الاطمئنان القلبي بهذه الأمور.

إنه طريق يسير، وفي نفس الوقت واسع وشامل لتحصيل العلم بالعقائد وأصول الدين، فهو واجب على كل مسلم ومسلمة كما تقول الرواية الشريفة: «طَلَبُ الـعِلْـمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَ مُسْلِمَة».

الاجتهاد والتقليد

يجب على كل مسلم وجوبا عينيا تحصيل علم الأحكام الشرعية عن طريق الاجتهاد أو التقليد

يجب على كل فرد مؤمن بالله عز وجل، معتقد بيوم القيامة، أن يتعلم الأوامر الإلهية ويعمل بها، ليتجنب عذاب الله ومهالك ما بعد الموت، ولذا فمن جملة العلوم التي يجب تحصيلها على كل فرد مسلم (وجوبا عينيا) هو علم الأحكام الشرعية (الفقه)، وذلك إما عن طريق الاجتهاد، وإما عن طريق التقليد، بمعنى: يجب على كل فرد مسلم أن يسعى لتحقيق شروط الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها المقررة، وان لم يسع المكلف ذلك، وجب عليه أن يرجع في أعماله إلى المتخصص (المجتهد) ليعمل طبقا لفتواه.

ما هو معنى الاجتهاد والتقليد؟

من المناسب هنا التعرض لبيان المقصود من الاجتهاد والتقليد؛ من اجل رفع الشبهات عن هذين الاصطلاحين اللذين تعرضا إلى حملات مغرضة من قبل فئة هدفها إثارة الفتن وتسميم الأذهان وخلط الأمور على البسطاء من غير الملمّين بالمعارف الإسلامية.

إن لمصطلحي الاجتهاد والتقليد مفهومين مختلفين، وبسبب عدم تمييز البعض لهذين المفهومين، فقد تعرضا لحملة من التشويه أدت إلى وقوع البسطاء من الناس في فخ الشك والشبهة، مما جرهم إلى ذمّ هذين الأصلين الأساسيين في مذهب الحق.

الاجتهاد المرفوض

إن لكلمة الاجتهاد في مذهبنا نحن الشيعة الإمامية معنى مرفوضا، وهو: القول بالرأي في المسائل الشرعية، بدون الاستناد إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله)، واعتبار هذا الرأي بمثابة حكم صادر من قبل الله تعالى، وبعبارة أخرى: الاجتهاد هو التشريع قبال شرع الله تعالى. وهذا المعنى للاجتهاد هو نفسه المعمول به لدى أتباع مدرسة الخلفاء أو ما يعرف (بالسنة)، لأنهم يدّعون بلا دليل أن أحكام جميع المسائل الشرعية لم تبيّن في كتاب الله عز وجل ولا في سنة نبيّه(صلى الله عليه وآله)، باعتبار أن كثيرا ما تواجه الإنسان قضايا يصطلحون عليها بـ(ما لا نص فيه)، أي: ليس لها حكم شرعي. ولذا يعتقدون انه ينبغي للمجتهد أن يفتي برأيه على أساس المصالح والمفاسد، والاستحسان والاستصلاح ونحوها، حتى لا تبقى هذه المسائل بلا حكم.

إن هذا المنهج يجعل الاجتهاد مصدرا مستقلا عن مصادر التشريع الإلهي، فيكون تشريعا قبال كتاب الله وسنة نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله)، فالاجتهاد بهذا النحو والذي هو (اجتهاد سني)، يستلزم نقصان دين الله.

لقد رفض أهل البيت (عليهم السلام) هذا النوع من الاجتهاد، وحذروا من القول بالرأي، فقد روي عن إمامنا الصادق (عليه السلام) انه قال: «مَنْ أَفْتَى النّاسَ

بِرَأْيِهِ، فَقَدْ دانَ بِما لا يَعْلَمُ وَمَنْ دانَ بِما لا يَعْلَمُ فَقَدْ ضادَّ اللهَ حَيْثُ اَحَلَّ وَحَرَّمَ فيما لا يَعْلَمُ».[١]

يقول صلوات الله عليه في موضع آخر: «وَإِيّاكَ أَنْ تَعْمَلَ بِرَأْيِكَ شَيْئاً...وَاهْرَبْ مِنَ الفُتْيا هَرَبَكَ مِنَ الأَسَدِ، وَلا تَجْعَلْ رَقَبَتَكَ لِلنّاسِ جِسْراً».[٢]

وقد ورد في كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) ذم هذا النوع من الاجتهاد، حيث قال في نهج البلاغة: «تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ القَضِيَّة فِي حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ القَضِيَّة بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلافِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ القُضَاة بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً... اَفَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى بِالاِخْتِلافِ فَأَطَاعُوهُ؟ أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ؟ أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ؟ أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟...».[٣]

كان هذا توضيحا لكلمة الاجتهاد بالمعنى المرفوض عند أهل البيت (عليهم السلام).

الاجتهاد المقبول

إن لكلمة الاجتهاد في فقه مذهب أهل البيت (عليهم السلام) معنى ومفهوما مختلفا تماما عن المعنى السابق، وهو يحظى بقبولهم (عليهم السلام)، بل ومن الواجب العمل به، وهو بذل قصارى الجهد لاستنباط واستخراج الأحكام الشرعية

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ٢٩٩، الحديث٢٥.

(٢) المصدرالسابق: الجزء ١، الصفحة ٢٢٦، آخر الحديث١٧.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٨.

من مصادرها المقررة، وهي: القرآن الكريم، والحديث الشريف، وإجماع العلماء، والعقل.

يقول علماء الأصول في الاجتهاد: «اِسْتِفْراغُ الوُسْعِ فِي تَحْصِيلِ الظَّنِّ بِالحُكْمِ الشَّرْعِي».

فتحصل عند المجتهد: «مَلَكَة يَقْتَدِرُ بِها عَلَى اسْتِنْباطِ الحُكْمِ الشَّرعِيّ الفَرْعِيّ مِنَ الأَصْلِ».[1]

وعلى هذا الأساس، فإن الاجتهاد في اصطلاح فقهاء مذهب أهل البيت(عليهم السلام) ليس بمعنى إبداء الرأي في المسائل الشرعية قبال رأي الله ورسوله، أو أن يفتي الفقيه برأيه ويجعل ذلك حكما شرعيا، بل الاجتهاد عند أهل البيت (عليهم السلام)بمعنى بذل الجهد في استخراج واستنباط الحكم الشرعي من كتاب الله أو سنة نبيه (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) من قول أو فعل أو تقرير، بالإضافة إلى العقل وإجماع العلماء.

إن اتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام) يعتقدون خلافا لما يعتقده أتباع مدرسة الخلفاء (السنة)، فنحن نعتقد أن كل مسالة تخص حياة الإنسان سواء الفردية أو الاجتماعية، حقوقية كانت أو مدنية، سياسية أو اقتصادية، في زماننا الحالي أو المستقبل القريب أو البعيد، إلا وقد جعل الله تعالى الحكيم العليم حكما لها في الشريعة الإسلامية، إما ضمن آيات القرآن الكريم، وإما ضمن أحاديث رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) أو الأئمة المعصومين من

(١) كفاية الأصول: الجزء ٢، الصفحة ٤٢٢.

آل بيته (عليهم السلام)، بنحو كلي أو بورود نص خاص جلي، أو ضمن حكم للعقل، فعلى المجتهد أن يبذل قصارى جهده من اجل استخراج واستنباط الأحكام من مصادرها.

إذن، يمكن القول أن الاجتهاد عند الشيعة لا يعني سن القوانين الشرعية، لان هذا من شأن رب العالمين تبارك وتعالى.

فالاجتهاد عندنا هو بمعنى البحث والفحص والاستكشاف في مطاوي وبطون مصادر الأحكام الشرعية، يقول علماؤنا في تعريف الفقه: «هُوَ العِلْمُ بِالأَحْكامِ الشَّرْعِيَّة الفَرْعِيَّة عَنْ أدِلَّتِها التَّفْصيلِيَّة».

والحاصل، أن الاجتهاد بالمعنى الذي يقول به شيعة أهل البيت (عليهم السلام)، الذين يعتقدون بحقيقة الإسلام ويدينون دين الحق ويتبعون القرآن، هو من ألزم الفرائض والسنن، حيث يجب حتما على مجموعة من أهل الإيمان السعي لتحصيل ملكة التفقه واستنباط الأحكام الشرعية، ليقوموا بمسؤولياتهم تجاه الآخرين، ويبلّغوا الأحكام الشرعية، يقول تعالى: ﴿...فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.[1]

الاجتهاد لا يصلح لأيٍّ كان

من المسلّم أن الاجتهاد لا يقتصر على شخص أو فئة معينة، وهو ليس حكرا على أحد، إن باب الاجتهاد مفتوح أمام الجميع، ولكن بشرطها

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

وشروطها.

إن الاجتهاد أمر تخصصي ودقيق، فمثله كمثل جميع الأمور التخصصية، فهو يحتاج إلى طي مراحل تمهيدية للحصول على كفاءات معينة، ومن البديهي أن من يريد أن يتخصص في الفقه ويستنبط الأحكام الشرعية من مصادرها المقررة، لا سبيل أمامه إلا بدراسة وإتقان العديد من العلوم التي لها صفة تمهيدية، مثل: علم النحو، والأدب، وعلم المنطق، وأصول الفقه بما لهذا العلم من اتساع، وتفسير القرآن؛ كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه ونحوها، وعلم الحديث؛ أي: التمكن من التعامل مع عدة آلاف من الروايات التي صدرت خلال ثلاثمائة عام تقريبا؛ من زمن رسول‌الله(صلى الله عليه وآله) وحتى بداية الغيبة الكبرى لمولانا صاحب العصر والزّمان(عجل الله تعالى فرجه الشريف)، بالإضافة إلى تمييز أقسام الروايات؛ من صحيح وحسن ومؤثّق ومسند ومرسل، ومتواتر، وأخبار الآحاد، والتمكن من علاج تعارض الأخبار الواردة، وتطبيق قواعد الإطلاق والتقييد والتعميم والتخصيص والإجمال والتبيين في فهم الآيات والروايات.

ومن جملة العلوم التي ينبغي للمجتهد الإلمام بها هو علم الرجال، وهو: العلم بطبقات الرواة، والتعرف على أحوالهم من حيث الصحة والفساد في العقيدة والمذهب، ومعرفة كون الراوي موثوقا أو غير موثوق، أو كونه ضابطا في نقل الحديث أو لا، وكذلك معرفة القضايا الاجتماعية والأخلاقية لئلا تكون الفتوى خلافا لإجماع الفقهاء، بالإضافة إلى التعرف على تاريخ الإسلام، وظروف الوضع السياسي الذي كان يمر به النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة

الأطهار (عليهم السلام)، والتعرف على أجواء صدور الرواية وكيفية وصولها بواسطة الرواة، والتعرف على فتاوى الفقهاء من سائر المذاهب الإسلامية في كل مسألة، وبعبارة أخرى: أن يكون عالما بزمانه وبما يحيط به، ليتمكن من ضبط الأحكام الشرعية كما أنزلها الله.

ومن الواضح أن كل واحد من هذه العلوم له فروع كثيرة، وان تحصيل ودراسة كلٍ منها يحتاج إلى وقت طويل، وقسط وفير من البحث والدراسة والتحقيق.

أهم شروط الاجتهاد

إن من يروم هذا المقصد الشريف يجب عليه أن يلمَّ بجميع هذه العلوم - والتي لها صفة تمهيدية طبعا- بالقدر الكافي للوصول إلى التفقه.

الآن، وبعد أن ألمَّ الطالب بجميع هذه العلوم، نصل إلى مطلب مهم آخر، وهو من أهم شروط الاجتهاد؛ إنه الحصول على ملكة استنباط الأحكام الشرعية؛ بمعنى: أن تحصل في الإنسان قوة نفسانية راسخة على اثر الممارسة العلمية الطويلة في المناظرات العلمية والمباحثات الدراسية، وتطبيق القواعد الكلية على الفروع الجزئية، ورد الفروع إلى الأصول، وذلك في خضم تضارب الآراء وتبادل الأفكار مع أصحاب النظر من المجتهدين في ميادين العلم والعلماء في الحوزات العلمية المباركة من فطاحل فن البرهان والسجال العلمي، فتحصل حالة من النضوج والمهارة الذاتية في تطبيق القواعد الكلية على القضايا الجزئية، وهنا يمكن القول أن هذه المرحلة هي التي تصنع من الشخص فقيها حقيقيا، وحسب ما يعبّر عنه في علم المنطق: تصنع من الطالب مجتهدا بالحمل الشائع الصناعي، وإلا فإن

الشخص لا يكون مجتهدا فقيها بمجرد مطالعته عدة كتب في النحو والبلاغة والمنطق والمعاني ونحوها، أو أن يمضي عدة سنوات في الحوزة العلمية يدرس فيها عدة كتب من مرحلة السطوح ككتاب فرائد الأصول أو المكاسب أو الكفاية، حتى أن الشخص لا يكون فقيها مجتهدا بصرف حضوره عدة دورات في بحث خارج الأصول، فلا يؤهله ذلك لان يكون أهلا للإفتاء وإبداء النظر في المسائل الفقهية، ولكن البعض وبكل جرأة يتصدى للإفتاء غير مبالٍ بشيء، يقول رسولنا الكريم (صلى الله عليه وآله) في هذا الصنف من الناس ممن لا حظ له من العلم: «أَجْرَأُكُمْ عَلَى الفَتْوى أَجْرَأُكُمْ عَلَى النّارِ».[1]

كلامُ فقيهٍ كبير

من المناسب هنا أن نورد كشاهد ومؤيد لما ذكرنا كلاما لأحد الفقهاء الأعلام في باب شروط وأهلية التصدي للإفتاء.

يقول الشيخ زين الدين العاملي (رحمه الله) المعروف بالشهيد الثاني في كتاب شرح اللمعة باب القضاء، بعد ذكر العلوم اللازمة للتصدي لمقام الإفتاء: «نَعَمْ، يُشْتَرَطُ مَعَ ذلِكَ كُلِهِ أن يَكُونَ لَهُ قُوَّة يَتَمَكَّنُ بِها مِنْ رَد الفُرُوعِ إلى أُصُولِها وَ اِسْتِنْباطِها مِنْها، وَ هذِهِ هِيَ العُمْدَة فِي هذا البابَ، وَ إلا فَتَحْصِيلُ تِلْكَ المُقَدَّماتِ قَدْ صارَتْ فِي زَمانِنا سَهْلَة لِكَثْرَة ما حَقَّقَهُ العُلَماءُ وَالفُقَهاءُ فيها وَفِي بَيانِ اسْتِعْمالِها، وَ إنما تِلْكَ القُوَّة بِيَدِ الله تَعالى يُؤْتِيها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ عَلى وِفْقِ حِكْمَتِهِ وَ مُرادِهِ، وَ لِكَثْرَة المُجاهَدَة

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ١٢٣، الحديث٤٨.

وَالـمُمارَسَة لأهْلِها مَـدْخَلٌ عَظِـيمٌ فِي تَحْـصِيلِها، ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾».[١]

قول أستاذ بارع

يقول الشيخ الأنصاري (رحمه الله) في رفعة مكانة الاجتهاد وصعوبة نيل هذا المقام، مع ما له من مرتبة عالية جدا من دقة نظر وعمق تحقيق في مختلف القضايا العلمية، فكان الكل يسلّم له بذلك: أن الحصول عليه أصعب واشد من الجهاد الطويل مع اشد الأعداء، ويطلب من الله تعالى أن يرزقه هذا المقام الرفيع، يقول: «رَزَقَنَا اللهُ الاجْتِهادَ، فَإنَّهُ أشَدُّ مِنْ طُولِ الجِهادِ».[٢]

أقوال المعصومين (عليهم السلام) في شدة الاهتمام بهذا المطلب

روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) انه قال: «مَنْ أفْتَى النّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً مِنَ اللهِ لَعَنَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ العَذابِ وَ لَحِقَهُ وِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِفُتْياهُ».[٣]

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: «مَنْ أفْتَى النّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، كانَ ما يُفْسِدُهُ مِنَ الدّينِ أكْثَرَ مِمّا يُصْلِحُهُ».[٤]

وعنه أيضا (صلى الله عليه وآله): «إنَّ اللهَ لا يَنْتَزِعُ العِلْمَ انْتِزاعاً وَلكِنْ يَنْتَزِعُهُ بِمَوْتِ العُلَماءِ حَتّى إذا لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أحَدٌ اتَّخَذَ النّاسُ رُؤَساءَ جُهّالاً فَأفْتَوْا

---

(١) شرح اللّمعة (الطبعة القديمة): كتاب القضاء، الصفحة ٢٠٤.

(٢) فرائدالأصول: الصفحة ١٤٨.

(٣) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ١١٨، الحديث٢٣.

(٤) همان، الصفحة ١٢١، الحديث٣٥.

النّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَاَضَلُّوا».[١]

فهو كما قال الله عزّوجل:﴿تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[٢]

ورد في شأن نزول هذه الآية الشريفة: أن جمعا من اليهود حرّفوا آيات التوراة من اجل منافع مادية، وكتموا ما فيها من حقائق، وفي نفس الحال فقد أحبوا عملهم القبيح هذا وفرحوا به، وتوقّعوا أن يكرمهم الناس، باعتبارهم علماء مدافعين عن الدين والشريعة، وان يكيلوا إليهم أنواع المدح والثناء، ولكنّ الله تعالى أنزل هذه الآية في تخطئتهم ووعيدهم بالعذاب الأليم، ولا شك أن هذه الآية الكريمة لا تختص بيهود عصر نزول القرآن، بل تشمل كل قوم في كل زمان ومكان، فعلى الرغم من أنهم لا يملكون الأهلية للإفتاء في مختلف أمور الدين، تراهم يتلاعبون بالدين بكل فرح وسرور، وينتظرون أن يقدّم الناس إليهم مختلف الخدمات، وان ينعتوهم بألمع الألقاب التي هم ليسوا أهلا لها أصلا، فيستغلّون جميع الفرص لتمجيد أنفسهم.

يقول عز وجل في هذه الفئة: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾.

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال لأصحابه: «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِكُمْ أقوامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ يَقُولُونَ: قَرَأْنَا الْقُرْآنَ مَنْ أَقْرَأُ مِنّا؟ وَ مَنْ أَفْقَهُ مِنّا؟ وَ

(١) المصدر السابق: الصفحة ٤٤، الحديث ٧٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

مَنْ اَعْلَمُ مِنّا؟ ثُمَّ الـتَفَتَ إلى أصْحابِهِ فَقالَ: هَلْ فِي أولئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟ قـالُوا: لا. قالَ: أولئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هذِهِ الآيَة: ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾».[1]

يقول (صلى الله عليه وآله) في حديث آخر: «مَنْ تَعَلَّـمَ عِلْـماً لِـيُمارِيَ بِـهِ الـسُّفَهاءَ أو لِيُباهِيَ بِهِ الـعُلَماءَ أو يَصْرِفَ بِهِ النّاسَ إلى نَفْسِهِ يَقُولُ: أنَا رَئيسُكُمْ، فَلْـيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ. إنَّ الرِّياسَة لا تَصْلَحُ إلا لاهْلِها فَمَنْ دَعَا النّاسَ إلى نَفْسِهِ وَ فيهِمْ مَنْ هُوَ اَعْلَمُ مِنْهُ، لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إلَيْهِ يَوْمَ الـقِيامَة».[2]

نعم، لهـذا الـسبب تجنّـب العظمـاء مـن العلمـاء والأتقيـاء قبـول هـذه المسؤولية الجسيمة قدر الإمكان، فعلى الرغم من أنهم كانوا أهلا للتـصدي للإفتـاء فـإنهم يبعـدون أنفـسهم عـن التـصدي لـه، متمـثلين بمـا قالـه الصّادق(عليه السلام) في وصية لعنوان البصري: «وَاهْرَبْ مِنَ الـفُتْيا هَرَبَـكَ مِـنَ الأسَدِ وَ لا تَجْعَلْ رَقَبَتَكَ لِلنّاسِ جِسْراً».

تورع العلماء والفقهاء عن التصدي للإفتاء

ننقل فيما يلي أنموذجا لورع العلماء ليتبيّن للقـارئ الكـريم عظـم ثقـل مقام المرجعية والإفتاء:

عندما توفي الشيخ محمد حسن النجفي صـاحب الكتـاب القـيّم (جـواهر الكلام) توجهت أنظـار جميـع علمـاء وفقهـاء الحـوزة العلميـة في النجـف الأشرف نحو الشيخ مرتضى الأنصاري؛ لما كـان يتمتـع بـه مـن شخـصية

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ١١١، الحديث ٢٤.

(٢) همان، الصفحة ١١٠، الحديث١٦.

علمية فذة، وكان الكل يرى انه الأفضل لتولي هذا المقام الكريم من زعامة للحوزة العلمية ورئاسة عامة المسلمين، ولكنّ هذا العالم الورع امتنع عن القبول، وقال: مع وجود من هو اعلم مني وهو (سعيد العلماء المازندراني) فليس من حقي التصدي لأمر الإفتاء.

لقد كان سعيد العلماء زميلا سابقا للشيخ في الدرس والمباحثة، وكان الشيخ الأنصاري عارفا بمقام سعيد العلماء المازندراني، ويعتبره اعلم منه.

في ذلك الحين، كان سعيد العلماء مقيما في مازندران، وكان قد ترك الحوزة منذ زمن، ولذا فقد أرسل الشيخ الأنصاري وفدا إلى مازندران لطرح الموضوع عليه، فأجاب: حتى لو سلّمنا جدلا باني كنت سابقا اعلم من الشيخ، فإن الشيخ وبسبب اشتغاله المستمر في الحوزة العلمية المباركة بالبحث والتحقيق والدراسة من جانب، وابتعادي عن الحوزة المباركة والمباحثات العلمية من جانب آخر، فقد أدى هذا إلى تقهقر مرتبتي العلمية، والآن فإن الشيخ اعلم مني وأحق في التصدي لمقام المرجعية والإفتاء.

بعد رجوع الوفد إلى الشيخ الأنصاري بالجواب، أحسَّ الشيخ بالتكليف الشرعي وكتب حاشية فتوائية على كتاب (نجاة العباد)[1].[2]

لقد بيّن الشيخ الأنصاري أن التصدي لمقام الإفتاء هو تكليف إلهي متى ما توفرت شروطه وجب القيام به طلبا لمرضاته عز وجل، لا أنه مقام

---

(١) كتاب (نجاة العباد) من جملة تأليفات المرحوم صاحب الجواهر، والكتاب عبارة عن رسالة فتوائيّة.

(٢) نقلنا هذه القصّة بتصرف من كتاب (الكلام يجرّ الكلام) لآية الله السيّد احمد الزنجاني: الجزء ١، الصفحة ١٢٧.

دنيوي يمكن أن يتعرض للمزايدات، فذلك يلوث صورة رجل الدين بل والفقهاء والمجتهدين والمرجعية، وأن اعتبار هذا المقام مقاما ماديا دنيويا يثير الشبهات عند الناس، ويؤدي - لا سمح الله - إلى أن يكون الشخص وصمة عارٍ على الإسلام والمسلمين، نستجير بالله من ذلك.

إلى هنا كان الكلام في بيان مصطلح الاجتهاد بمفهوميه المقبول والمرفوض، وكيفية التمييز بينهما.

التقليد

إن لمصطلح التقليد - كما أسلفنا سابقا - مفهومين مختلفين، الأول: مفهوم مرفوض. والثاني: مفهوم مقبول.

التقليد المرفوض

التقليد المرفوض: هو إتباع أعمى بلا دليل لنمطٍ أو مذهبٍ معينٍ، فيكون هذا الإتباع غير مستند إلى العقل والمنطق والفكر السليم. ينقل لنا القرآن الكريم جواب أتباع هذا المنهج على مَن قدم لهم النصح بترك طريق الغي والجهل والتقليد الأعمى وإتباع طريق الحق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.(١)

يقول عز وجل في ذم هذه الفئة: ﴿..أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.(٢)

---

(١) سورة الزخرف: الآية٢٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٠.

إن هذا النوع من التقليد ينمُّ عن جهل وبلاهة مطبقين، حيث يهوي بالإنسان إلى مستوى البهائم التي لا تعقل، ويجلسه أدنى مستويات الحضيض الفكري والأخلاقي والعملي، ويجعل منه ألعوبة بيد الاستعمار.

إن هذا النوع من التقليد يسلب الإنسان كرامته التي منحه الله عز وجل إياها، ويجلسه على بساط الذلّة والهوان، ألا لعنة الله على هذا التقليد.

التقليد المقبول

التقليد المقبول: هو رجوع غير المختص والملم في قضية ما إلى من هو مختص بها، وبإيجاز: هو رجوع الجاهل إلى العالم.

إن أيّ شخص ليس له إطلاع وإلمام كافيين بأحد الأمور التخصصية، كالأمور العلمية أو الحرفية ونحوها التي يحتاجها في حياته، يلزمه الرجوع إلى المختصين بها، وأن يعمل طبقا لرأيهم، وهذا ما يصطلح عليه في الفقه بـ(التقليد).

وبالتأكيد، فإن التقليد بهذا المعنى مقبول، بل من ضروريات الحياة، و بدونه يختل النظام على وجه البسيطة، فمن الواضح أن الإنسان العادي لا يمكنه الإلمام بجميع العلوم، ولو سلّمنا جدلا أن شخصا ألمَّ بكثير من العلوم بعد جهد جهيد، فلا يسعه إلا التقليد في باقي العلوم التي لم يتقنها ويلمّ بها، وان يرجع فيها إلى المختصين.

فلو أن طبيبا مثلا، لم يكن ملمّا بعلم الهندسة المعمارية، فمتى ما دعته الحاجة إلى بناء بيت، فلا يسعه إلا الرجوع إلى مهندس مختص في هذا المجال.

كما أن هذا المهندس متى ما عرض عليه مرض، لا يسعه إلا الرجوع إلى ذلك الطبيب أو أمثاله من الأطباء.

فهل أن رجوعنا إلى المختصين في مختلف حاجاتنا، ليس لـه نـصيب مـن المنطق والعقل؟ وهل ينبغي تجنب هذا المنهج في حياتنا لأنه خاطئ؟

لقد كان ولا زال هذا المنـهج نافعـا ومجـديا لجميـع النـاس وعلـى مـر العصور. إن إخراج هذا المنهج من حياتنا هو بمعنى سلب المجتمعات تمدنها.

يأمرنا الله تعالى باتباع هـذا النـهج العقلائـي بقولـه: ﴿...فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.(١)

إن كلمة «الذكر» الواردة في الآية، تعني العلم والإطـلاع والمعرفـة، وان كلمة «أهل الذكر» بما لها من مفهوم واسع، تشمل جميع أهل العلم والإطلاع والمعرفة في شتى المجالات، والحقيقة: أن هـذه الآيـة الـشريفة تؤسـس لهـذا المنهج العقلائي، والذي عمل به العقـلاء في مختلـف المجتمعـات وعلـى مـر العصور، فصار أصلا إسلاميا راسخا.

لقد أصّلت الآية الشريفة لهذا المنـهج العقلائـي، باعتبـاره عمـاد الحيـاة البشرية، وأقرّته كأصل إسلامي، وحثت أتباع الإسلام إلى الرجـوع لأهـل العلم والإطلاع والمعرفة في كل قضية تعرض لهم، ماديـة كانـت أو دينيـة، وحذرت من تدخل من ليس له علم وإطلاع كافٍ في أي قضية كانت.

وعلى هذا الأساس، فقد أمر الله تعالى برجوعنا إلى المختصين في مسائلنا الدينية، بل في كل مسألة تعرض لنا.

إن لهذا المنهج اصل عقلائي وقرآني مسلّم، يجب على الأمـة الإسـلامية

---

(١) سورة النحل: الآية٤٣. وسورة الأنبياء: الآية ٧.

في كل عصر وزمان، أن ترجع في مسائلها إلى المختصين في كل قضية تعرض لهم، فيرجع الجاهل إلى العالم، فتستمر الحياة بعيدة عن أي خلل وزلل يعرّض المسلم لسلب كرامته التي منحها الله إياها؛ ببذله ماء وجهه أمام غير أهل الذّكر.

التقليد هو إتّباع عقلائي مبنيٌ على البصيرة

للسائل أن يسأل: هل أن التقليد بهذا المعنى؛ أي: رجوع الجاهل إلى العالم، أو بتعبير آخر: رجوع غير المختصين إلى المختصين، هو إتّباع أعمى غير مستند إلى دليل؟

الجواب: بالعكس، إن التقليد إتّباع قائم على أساس الدليل، مدعوم بالبصيرة، مستند إلى العقل، مرتكز على نظرة صحيحة ومتينة، كما يعبر أهل المنطق: «إنها من قبيل القضايا التي تكون قياساتها معها»[1].

إن من يرجع في القضايا الطبية إلى الطبيب، أو في القضايا الهندسية إلى المهندس، يكون في ذهنه دليل واضح وراسخ، مفاده: بما أنني لست مختصا في الطب أو الهندسة، فيجب عليَّ تنفيذ حكم العقل والاستعانة بالمختصين، وبما أن هذا المختص حسن النية وموثوق، فلا مانع من الرجوع إليه.

إن هذا الدليل العقلي من أوثق الأدلة المستمدة من العقل، وهو دليل جامع لتمام موارد رجوع الجاهل إلى العالم، أي: الجهل بالقضية عند غير

---

(١) تطلق على تلك القضايا التي هي في البداهة والوضوح بحد لا تحتاج إلى إعمال فكر وتأمل، فهي حاضرة في الذهن، فتكون من القضايا التي قياساتها معها، أي: دليلها ضمنها.

المختص، والعلم بها عند المختص، فيجب على الجاهل الرجوع إلى العالم.

يتبين من خلال هذا البحث، أن التقليد بالمعنى الصحيح ليس معناه التبعية العمياء غير القائمة على الدليل بلا أي فهم أو بصيرة، بل هو عمل منطقي وعقلي تماما.

وإذا ما سمعنا من بعض العلماء في تعريف التقليد: انه بمعنى الإتّباع غير المستند إلى دليل، فمعنى هذا: نفي الدليل التفصيلي عن التقليد. وبيانه من خلال المثال التالي:

إن من يرجع إلى الطبيب أو المهندس، لا يعطي لنفسه الحق بالتدخل بالتفاصيل أبدا، كأن يتوقف المريض عن تطبيق إرشادات الطبيب حتى يعرف جميع المسائل الخاصة بالمرض؛ بدءا من أسباب المرض وكيفية تأثيره على الجسم، وطرق العلاج ونحوها من التفاصيل، وكذا الحال في من يحتاج إلى بناية، فلا يمكنه التوقف عن تنفيذ أوامر المهندس حتى يعرف جميع أسس علم الهندسة، فيطالب المهندس بان يبيّن له بالتفصيل جميع الأمور الهندسية.

إن هذا الأمر مجانب للصواب تماما، ولا يقول به أي عاقل، فيكفي الشخص إتباع إرشادات وأوامر المختص، ولا يحتاج في هذا المقام إلى دليل تفصيلي؛ فمن المعلوم أن طلب الدليل التفصيلي وفهمه، يعني معرفة كل تلك الأمور الدقيقة، ومن البديهي أن العلم والمعرفة يحتاجان إلى أن يطوي الشخص مراحل كثيرة، وهي تستنفد وقتا طويلا ربما يصل إلى عقود من الزمن.

إذن فالتقليد: هو إتّباع الجاهل للعالم على أساس الدليل العقلي الإجمالي، بدون فحص عن الدليل التفصيلي.

وعلى نفس هذا المنوال، يكون التقليد في الأحكام الشرعية (فروع الدين)، والتي يجب استنباطها من: القرآن الكريم، أو السنة، أو العقل، أو الإجماع. بالاعتماد على قواعد خاصة مقررة في محلها، أشرنا إلى بعضها سلفا.

إن أهل الإطلاع والاختصاص يعلمون تماما أن تحصيل مقدمات علوم الاجتهاد بما لها من اتساع وعمق، تحتاج إلى أكثر من الإلمام بهذه المقدمات، وهي موهبة خاصة تستلزم سعيا حثيثا منقطع النظير واشتغالا مستمرا لسنوات عدة، خلافا لباقي العلوم.

يا للتصور الواهي والقول الخاوي

من العجيب أن هنالك من تراوده تصورات واهية، ليس لها نصيب من العقل والصواب، والأعجب منه أن يدعو البعض إلى هذه الأوهام، فبعضهم مغرض والآخر جاهل، وخلاصة قولهم: انه لا مانع من سلوك جميع الناس طريق الاجتهاد والتحقيق، ليتمكنوا بأنفسهم من استنباط أحكام دينهم، ولا حاجة للتقليد أبدا، إذ انه يسلب الإنسان شرفه، ويقلده لجام البهائم.

أيها القارئ العزيز الواعي، هل تستحق هذه الأوهام ردا، اترك الحكم للقراء.

يشترط في المرجع إضافة إلى الاجتهاد توفر عنصر التقوى

يتميز شيعة أهل البيت (عليهم السلام) عن غيرهم، بشرط مهم في مسألة التقليد في الأحكام الشرعية؛ وهو أن يتصف الفقيه بالتقوى والورع وملكة مخالفة الهوى والخوف من الله عز وجل ليكون مؤهلا للتصدي للإفتاء، ومن أروع الكلمات قول صادق آل محمّد (عليه السلام) حيث انتشرت هذه الكلمة النورانية حتى بين عامة

الشيعة موثّقةً منهج الإفتاء والاستفتاء، يقول (عليه السلام): «فَأَمّا مَنْ كانَ مِنَ الفُقَهاءِ صائِناً لِنَفْسِهِ، حافِظاً لِدينِهِ، مُخالِفاً عَلى هَواهُ، مُطيعاً لأمْرِ مَوْلاهُ، فَلِلْعَوامّ أنْ يُقَلِّدُوهُ وَذلِكَ لا يَكُونُ إلا بَعْضُ فُقَهاءِ الشّيعَة لا جَميعُهُم».[1]

فمن كان من الفقهاء قادرا على صون نفسه من شهوات النفس ووساوس الشيطان، قادرا على حفظ دينه وإيمانه، فلا يبيع دينه بدنياه، ولا يفرّط به من اجل حطام الدنيا الزائلة، ولا يحرف الحقائق، مخالفا لهوى النفس الأمارة بالسوء، مطيعا لأمر ربه تعالى شأنه، فمتى ما توفرت هذه الشروط، فعلى عامة الناس أن يقلدوه، ولا يكون مثل هذا الشخص الجامع لكل هذه الفضائل، إلا بعض فقهاء الشيعة أعزهم الله ببرهانه.

فلا يكفي أن يكون الشخص حاصلا على ملكة الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها، مع كونه ضعيفا أمام أهوائه، فيمكن مع ماله من علم ومعرفة أن ينجر وراء متاع الدنيا ويقع في فخاخ الهوى، فيقدم هواه على طاعة مولاه عز وجل، أعاذنا الله من شرور أنفسنا.

عالم أضله الشيطان

ينقل لنا القران الكريم صورة لعالم أضله الشيطان، نستعرضها عسى أن يكون في هذا تنبيها وموعظة، يقول تعالى:

---

(١) احتجاج الطبرسي: الجزء ٢، الصفحة ٢٦٣، باب احتجاجات الإمام العسكري عليه السلام و بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ٨٨ ، حديث ١٢.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.(١)

بيان:

اقرأ و بيّن للناس خبر من آتيناه وأعطيناه موجبات التقرب إلى الله عز وجل من علم ومعرفة ونحوها، ولكنه بسبب تسويل نفسه خرج من تحت ظل رحمة الله وعنايته، فجاءه الشيطان واستحوذ عليه فتمكن منه، فكانت عاقبة أمره انه صار من الضالين الغاوين، في حين كان يمكنه الوصول إلى مقام رفيع بواسطة الآيات والعلوم الإلهية والعمل بها، ولكنه بدل أن يسمو إلى شرف العبودية، هوى إلى وادي المعصية، وانغمس في ملذات الدنيا، كل ذلك بسبب إتّباع الهوى، فاقصص هذه القصة وأمثالها للناس عسى أن يتفكروا ويعتبروا.

ذكر المفسرون في شأن نزول هذه الآيات: أن رجلا من بني إسرائيل يدعى (بلعم بن باعورا) كان يعيش في عصر سيدنا موسى (عليه السلام)، وكان من علماء بني إسرائيل المعروفين بالمقامات المعنوية، إضافة إلى كونه داعية مؤثر وقوي في نشر دين الله، لقد كان مستجاب الدعوة، ولكنه مع كل

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٧٥ و١٧٦.

ذلك العلم والقداسة فانه لم يستطع أن يصون نفسه من شراك الشيطان، فكانت عاقبة أمره أن زلّت قدمه، مقابل متاع الدنيا الدنية، فاتبع هواه وسار في ركب طاغوت زمانه (فرعون) وآل أمره إلى الخروج عن مسير الحق والابتعاد عن الله عز وجل، فسلب الله منه جميع عناياته ونعمه.

﴿...فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.(١) ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.(٢)

الغاية هي التنبّه والتفكّر

ينبغي التوقف عند آخر جملة من الآية الكريمة: ﴿...فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالغرض ليس مجرد سرد قصة وحسب، أو نقل واقعة جرت في الماضي، بل الغرض هو تنبيه وتذكير أتباع القرآن، ليتفكروا ويتعظوا من خلال النظر في آثار وأسباب الإخلاد إلى الأرض.

إن أكثر ما يشكل خطرا على المجتمع المسلم، بل على جميع المجتمعات البشرية، هو خطر عالم السوء الذي ينجر وراء متاع الدنيا، وبما انه يتبع أهوائه فسيكون تحت إمرة الطاغوت، فتراه يساند الظالمين على جرائمهم التي يرتكبونها بتغطيتها بغطاء الشرع، فيجر الشعوب إلى ويلات في الدنيا، وفي الآخرة لهم الندم والحسرة.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢.

(٢) سورة المؤمنون: الآيات ٩٧ و ٩٨.

وخير دليل على ذلك هو قول رسولنا الكريم (صلى الله عليه وآله): «صِنْفانِ مِنْ أُمَّتِي إذا صَلُحا صَلُحَتْ أُمَّتِي وَ إذا فَسَدا فَسَدَتْ أُمَّتِي، قيلَ: يا رَسُولَ الله وَ مَنْ هُما؟ قالَ: الفُقَهاءُ وَ الأمَراءُ».[١]

يقول إمامنا الباقر (عليه السلام) تعقيبا على الآيات (١٧٥ و ١٧٦) من سورة الأعراف والواردة في بلعم بن باعورا: «الأصْلُ فِي ذلِكَ بَلْعَم. ثُمَّ ضَرَبَهُ اللهُ مَثَلاً لِكُلّ مُؤْثِرٍ هَواهُ عَلى هُدَى الله مِنْ أهْلِ القِبْلَة».[٢]

ضرب الله في ذلك مثلا لكل من انحرف عن جادة الصواب بعد أن أتم الله عليه حججه وآياته ودلائله، فآثر دنياه على آخرته، ولا يقتصر هذا المثل على زمان أو مكان معين، بل يشمل أمثال بعلم بن باعورا في كل زمان ومكان؛ أولئك الذين يستبدلون المقامات العلمية الروحية بالإخلاد إلى الأرض بكل ذلة وهوان، وبالتالي يسقطون في هوّة الشقاء الدائم، ويجرون العباد إلى وادي الضلال.

تحصيل علم الدين من حق أصحاب القلوب الطاهرة

ما أروع ما اشترطه الإسلام في تقليد الفقيه، فبالإضافة إلى شرط الاجتهاد، اشترط تمتع العالم بروح التقوى وملكة مخالفة الهوى والخوف من الله، لأن المسلم يعتقد بكل وجوده أن الإسلام هو الملجأ الوحيد الذي يضمن له الحياة الأبدية والسعادة السرمدية، وليس هناك أي متاع أغلى وأثمن من

---

(١) خصال الصدوق: باب الاثنين، الحديث ١٢.

(٢) تفسير الميزان: الجزء ٨ ، الصفحة ٣٥٥.

الدين، فلذا ومن اجل الحصول على هذه النعمة فلا سبيل إلا بالتقرب من الساحة القدسية لرب العزة والجلالة.

لا يمكن أن نستسلم لأهواء من اتبع هواه وكان أمره فرطا، لان طريقه طريق غي وضلال، لا طريق حق وصواب.

يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «إذا رَأَيْتُمُ العالِمَ مُحِبّاً لِلدُّنْيا فَاتَّهِمُوهُ عَلى دينِكُمْ فإن كُلَّ مُحِب يَحُوطُ ما اَحَبَّ».[١]

فمتى ما رأينا عالما محبا لدنياه فيجب أن لا نعتمد عليه في أمور ديننا، لأن من احب شيئا فداه بجميع ما سواه حفاظا عليه، فيفدي الدين بالدنيا الدنية.

يروى عن صادق آل محمّد (عليه السلام) انه قال: «أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى داوُدَ (عليه السلام): لا تَجْعَلْ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ عالِماً مَفْتُوناً بِالدُّنْيا فَيَصُدَّكَ عَنْ طَريقِ مَحَبَّتِي. فإن أولئِكَ قُطّاعُ طَريقِ عِبادي المُريدينَ. إنَّ أدْنى ما أنَا صانِعٌ بِهِمْ أنْ أنْزِعَ حَلاوَةَ مُناجاتِي مِنْ قُلُوبِهِمْ».[٢]

وروي عن مولانا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) انه قال: «قالَ عيسى بْنُ مَريَمَ (عليهما السلام): اَلدّينارُ داءُ الدّينِ وَ العالِمُ طَبيبُ الدّينِ. فَإذا رَأَيْتُمُ الطَّبيبَ يَجُرُّ الدّاءَ إلى نَفْسِهِ فَاتَّهِمُوهُ واعْلَمُوا انَهُ غَيْرُ ناصِحٍ لِغَيْرِه».[٣]

وروي أيضا عنه (عليه السلام): «قِيلَ لأمير المُؤمنينَ: مَنْ خَيْرُ خَلْقِ الله بَعْدَ أئِمَّة الهُدى وَمَصابيحِ الدُّجى؟ قالَ: اَلعُلَماءُ إذا صَلُحُوا. قيلَ: وَ مَنْ شَرُّ

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ١٠٧، الحديث٧.

(٢) المصدر السابق: الحديث٨ .

(٣) بحارالأنوار: الجزء ٢، الحديث٥.

خَلْقِ الله بَعْدَ إبليسَ وَ فِرْعَونَ وَ نَمْرودَ وَ...؟ قالَ: العُلَماءُ إذا فَسَدُوا هُمُ المُظْهِرونَ لِلأباطيلِ، الكاتِمُونَ لِلْحَقائِقِ وَفِيهِمْ قالَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ: أولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللّاعِنُونَ...».[١]

رسالة الإمام السجاد (عليه السلام) لابن شهاب الزهري

بعث مولانا الإمام سيد الساجدين وزين العابدين علي بن الحسين(عليه السلام) برسالة إلى ابن شهاب الزهري، بيّن فيها نكات لطيفة وإشارات جزيلة، تحوي درر المواعظ وجوهر النصائح، ذكرنا قسما منها للتيمن والبركة وانسجامها مع بحثنا.[٢]

أما الرسالة فموجهة إلى الزهري؛ وهو محمد بن مسلم المعروف بابن شهاب الزهري، وحسب ما ذكر المؤرخون انه كان من عمّال حكومة بني أمية، أمضى شطرا كبيرا من عمره في خدمتهم، وبحسب ما يستفاد من رسالة الإمام فقد كان يُعدّ بنظر السذج من عامة الناس فقيها عالما، وان له ـ بنظرهم ـ قسطا وافرا من العلم والمعرفة بكتاب الله.

لقد كان له دور مهم في إرساء حكم بني مروان، فقد كان الزهري بمثابة غطاء شرعي يتستر به الظلمة للقيام بجرائمهم النكراء، ولهذا فقد أرسل إليه الإمام السجاد (عليه السلام) بهذه الرسالة، والتي هي بأسلوب العتاب والتحذير، نذكر شطرا منها عسى أن تكون واعظا ورادعا لأمثال الزهري،

---

(١) المصدرالسابق: الصفحة ٨٩ ، الحديث١٢.

(٢) من يريد الرجوع إلى اصل رسالته،فليراجع: تحف العقول: الصفحة ١٩٨ و بحارالأنوار: الجزء ٧٨، الصفحة١٣٢.

يقول (عليه السلام):

«كَفانَا اللهُ وَ إيّاكَ مِنَ الـفِتَنِ وَ رَحِمَكَ مِنَ النّارِ! فَقَدْ أَصْبَحْتَ بِحالٍ يَنْبَغِي لِـمَنْ عَرَفَكَ بِها أَنْ يَرْحَمَكَ. فَقَدْ أَثْقَلَتْكَ نِعَمُ الله بِما اَصَحَّ مِنْ بَدَنِكَ وَ أطالَ مِنْ عُمْرِك وَقامَتْ عَلَيْكَ حُجَجُ الله بِما حَمَّلَكَ مِنْ كِتابِهِ وَ فَقَّهَكَ فِيهِ مِنْ دينِهِ وَ عَرَّفَكَ مِنْ سُنَّةِ نَبِيهِ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله)».

أبعدنا الله وإياك عن الفتن، ورحمك من شديد عذاب نار جهنم، أنت في وضع ينبغي لكل من عرفك أن يشفق عليك، لما أوقعت نفسك فيه، واعرف أن نعم الله عليك كثيرة، قد أثقلتك بالمسؤولية، وأتمت عليك الحجة، فلا عذر لك. لقد أعطاك الله عمرا طويلا، وانعم عليك بالعلم، ومعرفة كتابه، وفقهك دينه، وعرّفك سنة نبيه (صلى الله عليه وآله).

«فَانْظُرْ أيُّ رَجُلٍ تَكُونُ غَداً إذا وُقِفْتَ بَيْنَ يَدَيِ الله فَسَأَلَكَ عَنْ نِعَمِهِ عَلَيْكَ كَيْفَ رَعَيْتَها وَ عَنْ حُجَجِهِ عَلَيْكَ كَيْفَ قَضَيْتَها وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ قابِلاً مِنْكَ بِالتَّعْذيرِ وَلا راضِياً مِنْكَ بِالتَّقْصِيرِ. هَيْهاتَ! هَيْهاتَ! لَيْسَ كَذلِكَ! اَخَذَ عَلَى الـعُلَماءِ فِي كِتابِهِ إذ قالَ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾».

فتأمل عندما تكون غدا بين يديه تعالى للحساب، فيسألك عن نعمه التي أنعمها عليك، وعن حججه التي أتمها عليك، فكيف تكون عند ذلك؟ وأي جواب أعددت له؟ فلا تظنن أبدا انك في ذلك اليوم يقبل منك عذر لتقصيرك، هيهات! هيهات! إن الأمر ليس كما تظن، لأنه تعالى كان قد اخذ

عهدا من العلماء بالدفاع عن الحق والثبات عليه، فقال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ فيجب على العلماء أن يبيّنوا الحق للناس، ولا يخفوا منه شيئا أبدا.

«وَاعْلَمْ أَنَّ أَدْنى ما كَتَمْتَ وَ أَخَفَّ ما احْتَمَلْتَ أَنْ آنَسْتَ وَحْشَةَ الظّالِمِ وَ سَهَّلْتَ لَهُ طَرِيقَ الغَيِّ بِدُنُوِّكَ مِنْهُ حِينَ دَنَوْتَ وَ إِجابَتِكَ لَهُ حِيَن دُعِيتَ. فَما أَخْوَفَنِي أَنْ تَكُونَ تَبُوءُ بِإِثْمِكَ غَداً مَعَ الخَوَنَة وَ أَنْ تُسْأَلَ عَمّا أَخَذْتَ بِإِعانَتِكَ عَلى ظُلْمِ الظَّلَمَة».

واعلم أن اقل ذنب اقترفته، و اصغر ظلم احتملته، هو بتقربك من الظالم، فآنست وحشته، وطمأنت خاطره، وأنا أخوف ما أخاف عليك غدا يوم الحساب - مع ما اقترفته من ذنوب - أن تكون من جملة الخائنين لعهد الله تعالى، وان تحشر معهم، وتحاسب على إعانتك للظالم.

«جَعَلُوكَ قُطْباً أَدارُوا بِكَ رَحى مَظالِمِهِمْ وَ جِسْراً يَعْبُرُونَ عَلَيْكَ إِلى بَلاياهُمْ وَ سُلَّماً إِلى ضَلالَتِهِمْ داعِياً إِلى غَيِّهِمْ سالِكاً سَبيلَهُمْ يُدْخِلُونَ بِكَ الشَّكَّ عَلَى العُلَماءِ وَيَقْتادُونَ بِكَ قُلُوبَ الجُهّالِ إِلَيْهِمْ. فَلَمْ يَبْلُغْ أَخَصُّ وُزَرائِهِمْ وَ لا أَقْوى أَعْوانِهِمْ إِلّا دُونَ ما بَلَغْتَ مِنْ إِصْلاحِ فَسادِهِمْ وَ اخْتِلافِ الخاصَّة وَالعامَّة إِلَيْهِمْ».

لقد جعلك الظالمون محورا يرتكزون عليه لارتكاب جرائمهم وظلمهم، وجسرا يعبرون به وصولا إلى مآربهم وغاياتهم الباطلة، وسلّما يصعدون

به ليزدادوا ضلالا وجورا، وبوقا لدعوة الناس وجذبهم، فبسببك وقع البسطاء من الناس، بل حتى العلماء وقعوا في الشك والشبهة، يقولون: ربما تكون هذه الحكومة حكومة حق؛ فيجب علينا تقويتها. فانخدع الناس بسبب رؤيتك في ركب الظالمين، فكنت أداة لخداع الناس، لأنك بنظرهم تريد مصلحتهم، فاستخدمك الظالمون كزمام لجر المغفلين، فانظر وتأمل مقدار شقائك، حيث لم يبلغ اقرب وأخص وزرائهم ولا أقوى أعوانهم ما بلغت من تحكيم وتقوية حكومتهم، والتغطية على جرائمهم وأعمالهم الفاسدة، فلم يقدّم أحد لهم خدمة مثلما قدمت لهم، لان الناس يعتبرونك عالما عارفا بموازين الشرع، فمجرد وجودك بينهم دليل على مشروعية أعمالهم، فمن الطبيعي أن ينخدع الخاص والعام بك، فأنت أكثرهم خطرا على الدين، وكذلك أكثرهم تعاسة وشقاء يوم القيامة.

«فَما اَقَلَّ ما أعْطَوْكَ فِي قَدْرِ ما اَخَذُوا مِنْكَ وَ ما اَيْسَرَ ما عَمَرُوا لَكَ! فَكَيْفَ ما خَرَّبُوا عَلَيْكَ! فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ؛ فَاِنَّهُ لا يَنْظُرُ لَها غَيْرُكَ وَ حاسِبْها حِسابَ رَجُلٍ مَسْئُولٍ...فَما أخْوَفَنِي اَنْ تَكُونَ كَما قالَ اللهُ فِي كِتابِهِ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا...﴾».

فما اقل ما أعطوك كثمن، و أغلى ما اخذوا منك وهو دينك، وما أحقر ما عمّرت من الدنيا، بأعظم ما خربت من الآخرة، اخذوا دينك وأعطوك حطاما، خرّبت آخرتك الأبدية وعمرت دنياك الزائلة، فانظر بأي ثمن بخس بعت نفسك، واغتنم هذه الفرصة وتأمل نفسك وما قدمت لغدٍ، لأنه لن

يحل في قبرك سواك، وحاسب نفسك محاسبة دقيقة كمحاسبة السلطان للرعية، و إني لأخاف عليك أن تكون ممن ذكرهم الله في كتابه، فقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا... ﴾ أي: جاء من بعد الصالحين أشخاص غير صالحين، فادّعوا أنهم قد ورثوا كتاب الله عز وجل، ولكنهم باعوه بثمن بخس، قدموا إتباع أهواءهم على طاعة ربهم، وكانوا يقولون حتى لو كنا مذنبين فسيغفر الله لنا، كان هذا بسبب غرورهم واغترارهم بالدنيا، فاعتبروا أنفسهم بمنأىً عن مساءلة الله وعقابه.

«إحْذَرْ فَقَدْ نُبِّئْتَ وَ بادِرْ فَقَدْ أُجِّلْتَ...تَجَهَّزْ فَقَدْ دَنا مِنْكَ سَفَرٌ بَعيدٌ وَ داوِ ذَنْبَكَ فَقَدْ دَخَلَهُ سُقْمٌ شَديدٌ».

إحذر فقد أمهلك الله مهلة لإصلاح ما أفسدت، وتجهز واستعد فقد دنا منك سفر طويل، وداوِ ذنبك فقد عرض على دينك سقم شديد.

«وَ لا تَحْسَبْ اَنّي اَرَدْتُ تَوبيخَكَ وَ تَعْنيفَكَ وَ تَعْييرَكَ لكني اَرَدْتُ اَنْ يَنْعَشَ اللهُ ما قَدْ فاتَ مِنْ رَأْيِكَ وَ يَرُدَّ اِلَيْكَ ما عَزَبَ مِنْ دينِكَ وَ ذَكَرْتُ قَوْلَ الله تَعالى فِي كِتابِهِ: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾».

ولا تعتبر نصحي لك أني أردت أن أوبّخك أو أعيّرك أو اشوّه سمعتك، بل أردت أن يشملك الله ـ بتذكيري إياك ـ برحمته ومغفرته، فتصلح نفسك، و أردت أن يرد الله عليك صوابك فتستدرك ما فرطت في دينك، كل هذا لأني تذكرت قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

«مـا اَخْـوَفَني اَنْ تَكُـونَ كَمَـنْ قـالَ اللهُ تَعـالى فِي كِتابِـهِ:
﴿...أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾
...فَنَحْمَدُ اللهَ الَّذِي عافانا مِمّا ابْتَلاكَ بِهِ، وَالسَّلام».

إنّ أشد ما أخافه عليك هـو أن تكـون ممـن أضـاعوا الـصلاة واتبعـوا الشهوات، وما أسرعَ ما سيلاقونه من سوء عاقبة ما فعلوا، وإنّا نـشكر الله تعالى أنه لم يبتلنا بما ابتلاك به وعافانا منه، والسلام.

عودٌ على بدء

كان المحور الرئيسي في بحثنا مسألة جواز تقليد الفقيه، واشـترطنا في جـواز التقليد ـ إضافة إلى الاجتهاد ـ توفر العدالة والتقوى وملكة مخالفة الهوى.

لذا يجب على عامـة المكلفـين أن يجـدّوا ويجتهـدوا في مقـام الفحـص والبحث ليحرزوا أنّ الفقيه الذي يريدون تقليـده مـستوفيا للـشروط مـن تقوى وصيانة للنفس وترك للهوى.

وفي حال تبين انه لا يتمتع بهذه الفضيلة العليا فلا يجوز تقليده حينئذ، و إن كان حائزا على درجة عالية من الاجتهاد وعلم الاستنباط.

لقد أكّد المعصومون (عليهم السلام) على هذه النقطة تأكيدا شـديدا، منـها قـول الصادق (عليه السلام): «فَاَمّا مَنْ كانَ مِنَ الـفُقَهاءِ صائِناً لِنَفْسِهِ...».

إن هذا الحديث جاء بعد أن ذكر (عليه السلام) الآية الكريمـة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.[1]

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٨.

لقد جاءت هذا الآية بعد عدة آيات تعرّضت إلى خيانة علماء اليهود لدين الله، فقال عز وجل: ﴿...وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.[1]

لقد كان فريق من اليهود يسمعون كلام الله ويفهمونه، وكانوا يعلمون تماما أن عملهم هذا باطل، وبهذا يتسببون بضلال الناس، ولكنهم مع كل ذلك حرفوه لأجل الحصول على حطام الدنيا، أما الآية (٧٨) من سورة البقرة فقد ذم الله فيها عوام اليهود من الذين لا يعرفون مقاصد الكتاب، ويتبعون علماءهم اتباعا أعمى، فقال فيهم:﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2]

لقد كانت فئة من عامة اليهود لا يعلمون كتاب الله، ينفذون كل ما يملي عليهم علماء السوء، لأنهم لم يكن لهم حظ من العلم والمعرفة.

روى المفسرون في تفسير هذه الآية:

«قال رجل للصادق عليه السلام : فإذا كان هؤلاء القوم من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعونه من علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره ، فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم ، وهل عوام اليهود إلا كعوامنا يقلدون علماءهم ؟ فقال(عليه السلام):

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٥.

(٢) هما: الآية ٧٨.

«بَيْنَ عَوامِّنا وَ عُلَمائِنا وَ بَيْنَ عَوامِّ الـيَهُودِ وَ عُلَمائِهِمْ فَرْقٌ مِنْ جَهَة وَ تَسْوِيَة مِنْ جَهَة. اَمّا مِنْ حَيْثُ اسْتَوَوْا، فإن اللهَ قَـدْ ذَمَّ عَوامَّنا بِتَقْليدِهِمْ عُلَماءَهُمْ كَما ذَمَّ عَـوامَّهُمْ وَ اَمّـا مِـنْ حَيْـثُ افْتَرَقُوا، فَلا».

قال : بين لي يا بن رسول الله ! قال عليه السلام:

«اِنَّ عَـوامَّ الـيَهُودِ كـانُوا قَـدْ عَرَفُـوا عُلَماءَهُـمْ بِالـكِذْبِ الصَّريحِ وَبِاَكْلِ الـحَرامِ وَ الرُّشـاءِ وَ بِتَغْيـيرِ الاَحْكـامِ عَـنْ واجِبِها بِالشَّفاعاتِ وَ الـعِناياتِ وَ الـمُـصائِعاتِ وَعَرَفُـوهُمْ بِالتَّعَصُّبِ الشَّديدِ الَّذي يُفارِقُونَ بِهِ اَدْيانَهُمْ وَاَنَّهُمْ اِذا تَعَصَّبُوا اَزالُوا حُقُوقَ مَنْ تَعَصَّبُوا عَلَيْهِ وَ اَعْطَوا مـا لا يَـسْتَحِقُّهُ مَـنْ تَعَـصَّبُوا لَـهُ مِـنْ اَمْـوالِ غَـيْرِهِمْ وَظَلَمُـوهُمْ مِـنْ اَجْلِهِـمْ وَ عَرَفُوهُمْ يُقارِفُونَ الـمُحَرَّماتِ وَ اضْطَرُّوا بِمَعارِفِ قُلُـوبِهِمْ اِلَى اَنْ مَنْ فَعَلَ ما يَفْعَلُونَهُ فَهُوَ فاسِقٌ لا يَجُوزُ اَنْ يُصَدَّقَ عَـلى الله وَ لا عَلى الـوَسائِطِ بَيْنَ الـخَلْـقِ وَ بَيْنَ الله. فَلذلِكَ ذَمَّهُـمْ لَـمّا قَلَّدُوا مَنْ قَدْ عَرَفُوا...».

ثمّ قال(عليه السلام):

«وَ كَذلِكَ عَوامُّ اُمَّتِنا اِذا عَرَفُوا مِنْ فُقَهائِهِمُ الـفِسْقَ الظّـاهِرَ وَالـعَصَبِيَّةَ الشَّديدَةَ وَ التَّكالُبَ عَلى حُطامِ الـدُّنْيا وَ حَرامِهـا وَاِهْلاكَ مَنْ يَتَعَصَّبُونَ عَلَيْهِ وَ اِنْ كانَ لِاِصْلاحِ اَمْرِهِ مُـسْتَحِقّاً وَالتَّرَفُّرَ بِالـبِرِّ وَ الاِحْسانِ عَلى مَـنْ تَعَـصَّبُوا لَـهُ وَ اِنْ كـانَ

للاِذْلالِ وَ الاِهانَة مُسْتَحِقّاً. فَمَنْ قَلَّدَ مِنْ عَوامِّنا مِثْلَ هـؤلاءِ الـفُقَهاءِ فَهُمْ مِثْلُ الـيَهُودِ الَّـذِينَ ذَمَّهُـمُ اللهُ تَعـالَى بِالتَّقْلِيـدِ لِفَسَقَة فُقَهائِهِمْ».

ثم إن الإمام الصادق (عليه السلام) بيّن الشروط اللازم توفرها في الفقيه لكـي يكون مرجعا للناس في تقليدهم، وذكر الجملة المعروفة: «فَأَمّا مَنْ كـانَ مِـنَ الـفُقَهاءِ صائِناً لِنَفْسِهِ...».

إذن فالعلم بالأحكام الإلهية سواء كان عن طريق الاجتـهاد أو التقليـد، هـو أوضح مصداق للحديث الشريف: «طَلَبُ الـعِلْـمِ فَرِيضَة عَلَى كُل مُسْلِمٍ».

التحلي بالأخلاق الفاضلة

وجوب تحصيل علم الأخلاق وجوبا عينيا

يجب على كل مسلم بعد تحصيل العقائد الحقة، ومعرفة الأحكام الشرعية التي هي محل الابتلاء، أن يلتفت إلى حقيقة مهمة، وهي: أن الهدف والغرض الرئيسي من بعثة الأنبياء (عليهم السلام) وتشريع الشرائع السماوية، هو ترويض النفس وتهذيبها ونقلها من مرتبة الحيوانية المنحطة إلى مصاف ملائكة الله المقربين، وما دمنا في هذه الدنيا يجب علينا أن نكون علماء وعقلاء وعابدين وزاهدين وصادقين وعادلين وأمينين و أوفياء، منزهين عن جميع الرذائل، متحلين بجميع الفضائل، غوثا للمظلومين، خصما للظالمين.

فنكون بعد انتقالنا من هذه الدار الفانية مقيمين في جنات النعيم، كما قال تعالى:

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ...﴾.[1]

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.[2]

---

(١) سورة ق: الآية ٣٥.

(٢) سورة القمر: الآية ٥٥.

﴿...وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.[١]

إن نيل الدرجات العلى المنورة بالنور الإلهي، متوقف على تطبيق قواعد التزكية بتفاصيلها، عندها يكون القلب طاهرا من كل رذيلة، متحليا بكل فضيلة.

إن ذلك يعتمد على مدى العلم والمعرفة بالرذائل والفضائل الأخلاقية، أو كما يعبر عنه علماء الأخلاق: العلم بالمهلكات والمنجيات.

فمتى ما تحقق ذلك سار المؤمن بخطى راسخة على طريق الحق والصواب، فينجو من حفر النيران المهلكات، ليصل إلى رياض الجنان الباقيات الحسنات.

طَلَبُ الـعِلْـمِ فَرِيضَة عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ و مُسْلِمَة

نعم، يجب على كل مسلم ومسلمة أن يطلب ويحصّل علم العقائد والأحكام والأخلاق؛ لكي يحلي جوهر نفسه بفضائل الصفات، ويطهرها من دنس رذائل الأفعال والأقوال.

لقد أكّد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أن الهدف من بعثته هو ترسيخ القيم الأخلاقية الفاضلة، حيث يقول: «اِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الاخْلاقِ».[٢]

يشبه لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) النفس الإنسانية كنبات في ارض قاحلة بأمس الحاجة إلى ماء التربية والتزكية التي جاء بها الأنبياء (عليهم السلام)، ومتى ما انقطع الماء عنها فقدت حياتها الحقيقية، يقول(عليه السلام): «اِنَّ بِذَوِي الـعُقُولِ مِنَ

---

(١) سورة الأنبياء: الآية١٠٢.

(٢) مستدرك الوسائل: الجزء ٢، الصفحة ٢٨٢.

الحاجَة إِلَى الأدب كَما يَظْمَأُ الزَّرْعُ إِلَى المَطَرِ».[١]

وأيضاً يقول (عليه السلام): «لَوْ كُنّا لا نَرْجُو جَنَّة وَ لا نَخْشى ناراً وَ لا ثَواباً وَ لا عِقاباً، لَكانَ يَنْبَغي لَنا اَنْ نَطْلُبَ مَكارِمَ الأخلاق. فَاِنَّها مِمّا تَدُلُّ عَلَى سَبيلِ النَّجاحِ».[٢]

ويقول (عليه السلام) في آخر هذا الحديث: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ اَحَدٌ اِلّا بِحُسْنِ الخُلْقِ».

فاجتهد لان تكون صفاتك حسنة، واعلم انك ستحشر يوم القيامة على صورتك الحقيقية، كما جاء في الحديث الشريف: «يُحْشَرُ النّاسُ عَلى نِيّاتِهِمْ».[٣]

وفي حديث آخر: «يُحْشَرُ بَعْضُ النّاسِ عَلى صُوَرٍ تَحْسُنُ عِنْدَها القِرَدَة وَالخَنازيرُ».[٤]

وما أكثر الروايات الواردة في هذا الشأن، فإنها إن دلت على شيء فهي تدل على أنّ معيار السعادة الحقيقي هو تلك الفضائل الأخلاقية، ومعيار الشقاء هو تلك الرذائل الأخلاقية، فانظر ماذا تختار.[٥]

الفرق بين الخَلْق والخُلُق

يجب أن ندرك حقيقتين مسلّمتين:

الأولى الخَلْق: هي الصورة الظاهرية المادية التي صورنا الله تبارك

---

(١) غرر الحكم: الجزء ١، الصفحة ٢٢٤.

(٢) مستدرك الوسائل: الجزء ٢، الصفحة ٢٨٣.

(٣) علم اليقين للفيض الكاشاني: الصفحة ٢٠٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) و كما رأيت فإن تحصيل العقائد الحقّة لها المرتبة والأولوية العليا، لأن تأثيرها في تحقق الملكات الفاضلة والتخلص من الرذائل من القطعيات والمسلمات في الدين الإسلامي الحنيف.

وتعالى بها، ولا يمكن تغييرها حسب إرادتنا، فصار الناس بها: جميلا وقبيحا، طويلا وقصيرا، ابيض واسود، ونحوها من الصفات البدنية، والتي سنبقى عليها إلى نهاية آجالنا، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ...﴾.(١)

الثانية الخُلُق: هي الصور الباطنية الروحية المعنوية للإنسان، ويمكن تغييرها حسب إرادتنا، حيث أودع الله تعالى فينا قوة وقدرة على التحكم بتصرفاتنا، فنعمل أعمالا حسنة أو سيئة متى نشاء، فيكون باطن الإنسان: إما حسنا جميلا، وإما سيئا قبيحا.

فإذا كانت الصورة الباطنية جميلة فإن صاحبها يكون إنسانا شريفا طاهرا متّصفا بالأخلاق الفاضلة من صدق وصفاء وصبر وشكر وتسليم ورضا، فهي تناسب أن يكون صاحبها من أصحاب الجنة، رفيقا للأنبياء والأولياء (عليهم السلام).

وإذا كانت الصورة الباطنية - لا سمح الله - سيئة قبيحة فإن صاحبها يكون إنسانا شريرا، متّصفا بالصفات السيئة الرذيلة والوساوس الشيطانية والنزعات البهيمية، لا تناسب إلا دركات جهنم، وتؤهله لمرافقة الكفرة والفسقة في نار السموم.

لقد حث الله تعالى عباده لان تكون صورتهم الخُلُقية (الباطنية) صورة حسنة، يقول تعالى:

---

(١) سورة آل عمران: الآية٦.

﴿...فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾.[١]

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.[٢]

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ...﴾.[٣]

فتنبه أيها العزيز واحسن الاختيار، أتريد أن تكون صورتك الباطنية قبيحة أم جميلة، فانظر بأي مكان تريد أن تبني دار إقامتك الأبدية، أتبنيها في ارض النعيم، أم في ارض الجحيم!

فلنجعل نصب أعيننا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.[٤]

أي العلوم أهم

روي عن مولانا أميرالمؤمنين (عليه السلام) انه قال: «الزَمُ العِلْمِ لَكَ ما دَلَّكَ عَلَى صَلاحِ قَلْبِكَ وَ اَظْهَرَ لَكَ فَسادَهُ».

وقال (عليه السلام) في آخر حديثه: «فَلا تَشْغَلَنَّ بِعِلْمٍ لا يَضُرُّكَ جَهْلُهُ وَ لا تَغْفُلَنَّ عَنْ عِلْمٍ يَزيدُ فِي جَهْلِكَ تَرْكُهُ».[٥]

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٣) سورة الحديد: الآية ٢١.

(٤) سورة الحشر: الآية ١٨.

(٥) مجموعة ورّام: الجزء ٢، الصفحة ١٥٤.

وقفة:

لا شك أن كل علم له مكانة شريفة، وهو على كل حال افضل من الجهل.

لكن، كل إنسان عاقل ومنصف يعرف جيّدا أن العمر قصير، والقدرات محدودة، سواء المادية أو المعنوية، هذا بالإضافة إلى ضيق الوقت لتحصيل العلم، وقلة الأساتذة، وتعرضنا لأنواع النوازل والعوائق، فلا يمكن للإنسان أبدا أن يحصل على تمام العلوم والحِرَف، بدرجة يكون ملمّا بجميع تفاصيلها، ولذا فلا يسعنا إلا أن نضع في أول سلم أولوياتنا بعض العلوم ونقدمها على سواها، تلك العلوم التي يلزم تحصيلها ويعظم نفعها، وبعد أن نعيّن هذه العلوم نبادر فورا إلى تحصيلها وتعلمها، ولا ننتقل إلى غيرها إلا بإتقانها.

من البديهي أن ذلك العلم الذي له علاقة وتأثير مباشر على حياة الإنسان الأبدية، ويضمن له السعادة الأخروية الدائمة، له أعلى درجات الأهمية والأولوية، وأنّ طلبه أوجب وألزم بالنسبة إلى سائر العلوم.

انه ذلك العلم الذي بعث الأنبياء (عليهم السلام) به، وبذلوا الغالي والنفيس لإيصاله إلى الناس، وصرّحوا بأن فاقده سيكون محروما من البركات والنعم إلى الأبد، وتاركه في عذاب أليم دائم.

نعم، انه علم تزكية وتطهير النفس من دنس الرذائل وتحلّيها بالفضائل والمكارم، إنه العلم الذي يقول الله فيه بعد أن اقسم أحد عشر قسما: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.[1]

---

(١) سورة الشمس: الآيات ٩ و١٠.

وبالتأمل بعدد الأقسام التي اقسمها الله تعالى في سورة الشمس - والتي ليس لها مثيل في القرآن كلّه- بخصوص (علم التزكية)، وبالتأمل أيضا بالموضوع المقسوم من اجله، يمكن الوقوف على أهمية المقسوم عليه بهذه الأقسام الكثيرة والمتتالية. إنه لأمر غاية في الأهمية لا يقل عن عظمة خلق الحياة والشمس والقمر والسماوات والأرض ونفس الإنسان المُلهَمة وجلال وكبرياء الله عز وجل.

إذن، فإن فلاح ونجاح الإنسان وسعادته الأبدية متوقف على تزكيته نفسه وحسب.

العلم في كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله)

روي عن مولانا الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) أنه قال:

«دَخَلَ رَسُولُ الله الـمَسْجِدَ فَإِذَا جَمَاعَة قَدْ أَطَافُوا بِرَجُلٍ فَقَالَ مَا هَذَا فَقِيلَ عَلَّامَة فَقَالَ وَ مَا الـعَلَّامَة؟ فَقَالُوا لَهُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَنْسَابِ الـعَرَبِ وَ وَقَائِعِهَا وَ أَيَّامِ الـجَاهِلِيَّة وَ الأَشْعَارِ الـعَرَبِيَّة قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله) ذَاكَ عِلْمٌ لا يَضُرُّ مَنْ جَهِلَهُ وَ لا يَنْفَعُ مَنْ عَلِمَهُ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله) إِنَّمَا الـعِلْمُ ثَلاثَة آيَة مُحْكَمَة أَوْ فَرِيضَة عَادِلَة أَوْ سُنَّة قَائِمَة وَ مَا خَلاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ».[1]

يتبين من خلال هذه الرواية الشريفة أن جميع العلوم لا يمكن أن نستفيد منها تمام الفائدة إلا إذا كانت نابعة من أحد هذه الأقسام الثلاث: «آيَة مُحْكَمَة

(١) الكافي: الجزء ١، الصفحة ٣٢، الحديث ١.

أَوْ فَرِيضَة عَادِلَة أَوْ سُنَّة قَائِمَة» فعندها تكون هذه العلوم وسيلة لازدهار الإنسان في الدنيا والآخرة، وإلا فإن الإنسان الذي يصرف عمره في تحصيل علوم لا صلة لها بتزكيته، والحال انه في أمسِّ الحاجة إلى التزكية، لا يعود عليه علمه هذا إلا بخسارة عمره الثمين الذي لا يعوض بأي شكل من الأشكال، ولا يعود عليه أيضا إلا بالابتعاد عن شرف الإنسانية والهدف من خلقتها، والحرمان الأبدي من السعادة، والسقوط في وادي الهلاك الدائم.

وقد أجاد الشاعر حيث قال:

تشغلك الزخارف والنقوش والدار خاوية على العروش[1]

يجب على العاقل أن يبدأ بتقوية أسس المشروع الإلهي في نفسه بواسطة هذه العلوم الرئيسية، ومن ثم الاشتغال باللمسات الجمالية بواسطة سائر العلوم.

تنبيه! عندما يكون العلم وبالاً لا كمالاً

من النقاط الرئيسية في هذا الباب، والتي يجب الالتفات إليها بدقة، هي أن العلم بالفضائل والرذائل الأخلاقية، ومعرفة المنجيات والمهلكات، لا تكفي وحدها لتحقيق سعادة الإنسان، يجب أن لا يمني الإنسان نفسه بأنه عالم بتفاصيل علم الأخلاق وتفريعاته؛ من حكمة عملية ونظرية، وجنود علم وجهل، ونحوها من المصطلحات والمفاهيم الخاصة بعلم الأخلاق، ولا يمني نفسه كذلك بأنه قادر على تدريس هذه الأمور وتفهيمها للناس، فإذا كان هذا العلم

---

(١) اصل البيت بالفارسيه كالاتي:

خانه از پاي بست ويران است خواجه در بند نقش ايوان است

والتمكن من الفهم والتفهيم، لا يصاحبه نورانية في قلب من يحمله، ولا توجد صبغة الفضائل وترك الرذائل في جوهر نفسه، ولا يخرجه علمه هذا من مستنقع شهواته وقبيح فعاله وأقواله، فيجب أن يعلم جيدا أن هذا العلم الذي يحمله لا يزيده من الله عز وجل إلا بعدا، فيكون عليه عمى عن رؤية جمال الملك والملكوت الأعلى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.(١)

وعندما يرى نفسه أعمى يعترض على الله تعالى، قائلا: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾.(٢)

فيصل الجواب من رب العزة: ﴿...كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.(٣)

لقد كنت في الدنيا أعمى القلب عن آيات الله، لا تبصر آيات جلاله وجماله، لقد أحاطت بك آيات الله من كل مكان، وكنت أيها الإنسان واعيا ومدركا لها، بل وتعلّمها للناس، ولكن لم تكن تستخدم بصيرتك لأنك حبست نفسك في حجب النسيان والتغافل، والحال انك في يوم تبرز فيه البواطن، وتكشف فيه السرائر، لا ترى جمالا ولا سرورا، فتكون النتيجة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ...﴾.(٤)

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٢) هما: الآية ١٢٥.

(٣) هما: الآية ١٢٦.

(٤) هما: الآية ١٢٧.

نعم، إن عاقبة من لم يؤمن بآيات ربه، ولم يعمل طبقا لأمره، أن يحشر أعمى.

ما اشده من إسراف!

هل من الصواب في شيء أن تصرف عمرك الثمين في جمع أنواع العلوم، وتكدس في ذهنك آلاف المعلومات والمصطلحات، وان تزيّن أقوالك بأنواع العبارات الخطابية البراقة ، لتمررها على البسطاء وتجذب أنظارهم إليك من اجل الحصول على مقامات دنيوية دنية؟

سيؤول بك الأمر إلى أن تخرج من الدنيا صفر اليدين عاري الكفين، لا شرف ولا كرامة، فاقدا لرضا ربك، أليس هذا هو عين الإسراف؟

نعم، قَسَماً بمن فلق الحبة وبرأ النسمة إنه إسراف بكل ما للكلمة من معنى، إنه لهو الإسراف الحقيقي.

إذن، ماذا نسمي من يعرض عن ألذّ الأطعمة، والحال انه بأمسِّ الحاجة إليها، بينما تراه يبحث عن طعام آخر في أكثر الأماكن قذارة واشدها تعفنا، أليس هذا إسرافا بحق؟

كيف بك بمن أهدر حياته الثمينة وثماره الفكرية، التي بها تحيى القلوب حياة أبدية، والتي تكون أيضا وسيلة لجلب رضا الرب تعالى شأنه، فترى صاحبها يلقيها في مكب هوى النفس الأمارة بالسوء، ويخوض بها في مستنقع الدنيا القذر، فيمجّده أهل الدنيا وينعتونه بالعالم والعلامة، فيكون من مفاخر الأمة! في حال أن قبح عمله وسوء اختياره بتركه تعلم ما به حياته الأبدية وسعادته السرمدية، أكثر سوءا وأفشى فضيحة من ذلك الذي يعرض عن ألذّ الطعام.

ما اجمل ما رواه أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) عن روح الله عيسى بن مريم (عليهما السلام)، حيث يقول:

«وَيْلَكُمْ يا عَبيدَ السَّوءِ مِنْ أَجْلِ دُنْيا دَنِيَّة وَ شَهْوَة رَدِيَّة تُفَرّطُونَ فِي مُلْكِ الجَنَّة وَ تَنْسَوْنَ هَوْلَ يَوْمِ القِيامَة. إنَّ شَرَّ النّاسِ لَرَجُلٌ عالِمٌ آثَرَ دُنْياهُ عَلَى عِلْمِهِ فَأَحَبَّها وَ طَلَبَها وَ جَهَدَ عَلَيْها حَتّى لَوِ اسْتَطاعَ أَنْ يَجْعَلَ النّاسَ فِي حَيْرَة لَفَعَلَ. وَماذا يُغْني عَنِ الاعْمى سِعَة نُورِ الشَّمْسِ وَ هُوَ لا يُبْصِرُها كَذلِكَ لايُغْنِي عَنِ العالِمِ عِلْمُهُ إذْ هُوَ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ».[1]

العلاقة بين العلوم الثلاثة

الأمر الآخر الذي ينبغي الالتفات إليه جيدا هو أنّ العلوم الثلاثة (العقائد، والأخلاق، والأحكام الشرعية) تلتقي في نقطة واحدة، ألا وهي تربية الإنسان.

إنّ هذه العلوم تتبادل التأثير فيما بينها، ونسوق لذلك مثالا: إذا التزم شخص بأداء تكليفه الشرعي، من عبادات ومعاملات طبقا لما أمر به الشرع، وامتثالا لأمر الله تعالى ونهيه، وطلبا لمرضاة الله ووجهه، فمن الطبيعي أن تظهر على هذا العبد آثار واضحة في أخلاقه وعقائده، وبالتالي يؤدي به إلى أن يسمو ويتكامل.

---

(١) تحف العقول: الصفحات ٣٧٥ و٣٧٦.

يقول تعالى: ﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ...﴾.(١)

من خلال هذه الآية الكريمة نعرف أن من جملة آثار تقوى الله تعالى هو تهيئة النفس لتلقّي العلوم الإلهية، فيكون قلب الإنسان المتقي لله كمثل المرآة الصافية التي تعكس نور الحقائق الإلهية، كما دلت الآية الكريمة على هذا المعنى، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا...﴾.(٢)

فالفرقان هنا معناه قوة الإدراك، وتمييز الحق من الباطل، وحسب ما تفيده الآية فإن من آثار التقوى على نفس المتقي هو وجود نوع من النورانية يفرّق بها ويميز من خلالها المتقي سبيل الشيطان عن سبيل الرحمن، فيتجنب الانحراف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾.(٣)

يدل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ انه عندما تهجم الوساوس الشيطانية والميول النفسانية، والتي غالبا ما نتعرض لها، تكون كالدخان الأسود والغبار الغليظ على وجه القلب، فتحجب نور البصيرة عن تمييز الحق من الباطل، فتأتي قوة التقوى وذكر الله تعالى كالبرق الخاطف تنير قلوب المتقين محطمة أسوار الظلام الشيطانية، فينجلي نور الحقيقة.

والواقع أن التعبد العملي يترك أثره على الإدراك العقلي والخُلُقي، فيرتقي بالعبد إلى الكمال، كما أن عدم تقوى الله في الأفعال والأقوال يترك

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

أثره السيئ على النفس، فتستفحل الرذائل الأخلاقية، وتضعف العقائد الإيمانية، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.(١)

إن من يرتكب السيئات من أفعال و أقوال، تؤدي به سيئاته - والعياذ بالله - إلى تكذيب آيات الله والاستهزاء بها، ثم تسري المعصية إلى سائر عقائده فتفسدها، فتستفحل حينئذ الرذائل الأخلاقية في نفسه.

أفادت الآية الكريمة أن نتيجة الانحراف والفساد كمثل الوباء يأكل إيمان الإنسان، فيؤدي به إلى الكفر، أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

من جانب آخر فإن العمل على ترسيخ العقيدة والإيمان، ينتج عنه تهذيب النفس، يقول تعالى: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟...﴾.(٢)

فمن بين جميع عباد الله جل وعلا فلا يخافه إلا العلماء.

فمقام الخشية يعني الخوف من التقصير في أداء الواجبات الملقاة على عاتق العبد المكلف، و تتجلى من خلال إدراك العظمة الإلهية، فتؤدي إلى ترسيخ مكارم الأخلاق؛ التي هي من صفات أولياء الله الخلّص.

وطبقا لما أفادت به الآية الكريمة، فإن العلم والمعرفة بمقام الكبرياء الإلهي والقهارية لجناب الحق عز وجل، ينتج عنه الاعتقاد بأنه تعالى سريع الحساب وشديد العقاب.

---

(١) سورة الروم: الآية ١٠.

(٢) سورة فاطر: الآية ٢٨.

فكلمة (إِنَّمَا) تفيد الحصر، وبذلك تنحصر الخشية من الله في العلماء دون غيرهم، فقد ورد في الحديث الشريف: «اَعْلَمُكُمْ بِالله اَخْوَفُكُمْ لله».[١]

وروي أيضا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: «اَتَمُّكُمْ عَقْلاً اَشَدُّكُمْ لله خَوْفاً».[٢]

وروي عن مولانا سيد الساجدين (عليه السلام) انه قال: «وَ مَا العِلْمُ بِالله وَ العَمَلُ اِلّا إِلفانِ مُؤْتَلِفانِ فَمَنْ عَرَفَ اللهَ خافَهُ وَحَثَّهُ الخَوْفُ عَلى العَمَلِ بِطاعةِ الله وَ اِنَّ اَرْبابَ العِلْمِ واَتْباعَهُمْ (هُمُ) الَّذِينَ عَرَفُوا اللهَ فَعَمِلُوا لَهُ وَ رَغِبُوا اِلَيْهِ وَ قَدْ قالَ اللهُ: إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ».[٣]

يتبين إذن أن السعي لتحكيم أساس العقيدة والمعرفة ينتج عنه ازدهار الفضائل الأخلاقية وتقوية الحالات الروحية الكريمة، والتي تحمل الإنسان على الالتزام بالتقوى. كما أن ضعف العقيدة والإيمان يؤدي إلى ظلمة القلب واسوداده واللامبالاة في مقام العمل، وعليه فلا يمكن أن نتوقع من شخص لا يبالي بالأحكام الشرعية ولا التقوى العملية، أن يكون ذو إيمان كامل وأخلاق مهذبة. كما لا يمكن لشخص ضعيف العقيدة يخوض قلبه في الشك والارتياب، أن يكون متصفا بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة من زهد وورع وصبر وشكر وتسليم ورضا.

فهل يمكن لمن فقد الملكات الخُلُقية الكريمة، واختار لباس القبائح الأخلاقية؛ من كبر ورياء وحرص وبخل وحسد وحب للمال والجاه، أن يكون مؤمنا بالله

---

(١) تفسير مجمع البيان: ذيل الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٢) جامع السّعادات: الجزء١، الصفحة ٢٢٥.

(٣) تفسير نور الثّقلين: الجزء ٤، الصفحة ٣٥٩، عن روضة الكافي.

ومعتقدا بالوحي ويوم الجزاء؟ وهل يمكن أن يكون في مقام العمل متقيا ومراعيا لحدود الشرع وحافظا لحقوق الخلق والحق عز وجل؟

كلا، إن الشجرة الطيبة للإيمان واليقين القلبي هي التي تثمر بالخلق الحسن والعمل الصالح، والعجيب أن هذه الشجرة الطيبة تنمو وتكبر بواسطة نفس هذه الثمار، كما قال عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.[1]

فالكلم الطيب الوارد في الآية الكريمة يعني العقائد الحقّة التي تسمو بالإنسان المعتقد إلى مقام القرب الإلهي، أما العمل الصالح الذي يكون ثمرة الاعتقاد الصحيح، فينتج عنه رسوخ العقائد الصحيحة.

فمتى ما تكرر هذا العمل الصالح واستمر، أوجب رسوخ ذلك الاعتقاد بالقلب، فيزيد من صفاء وجلاء القلب، ويرقى بالعبد إلى الكمال.

نعم، إن العقيدة والإيمان ينتج عنهما العمل الصالح، وتكرار العمل ينتج عنه الأخلاق الفاضلة، عندها يتحد العمل الصالح والأخلاق الفاضلة لتثمر عن تقوية ورسوخ العقيدة والإيمان.[2]

فعلى الرغم من أن الأخلاق تتولد من تكرار العمل الصالح واستمراره، ولكنها بالتالي تكون سببا لتسهيل القيام بالعمل الصالح، ولذا فالعمل الصالح الذي ينبثق من جذور العقيدة والإيمان، وبتسهيل من ملكة الأخلاق الفاضلة، يصدر عن الإنسان المؤمن بلا أي تكلف، فيكون عملا نورانيا، و وسيلة للقرب من

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) ان تفسير هذه الآية الشريفة بهذا المعنى هو مطابق لظاهرها. كما استفدنا من تفسير الميزان: الجزء ١٧، الصفحة ٢١.

ساحة القدس، وموجبا للرقي في درجات السعادة الأخروية.

اغتنام الفرص

أدعو جميع شباب المسلمين الأعزاء لاستثمار هذا العمر القيم القصير، كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «يا اَبا ذَرٍّ اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَ غِناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَ فَراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَ حَياتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ».[١]

وقال أيضا (صلى الله عليه وآله): «تَرْكُ الفُرَصِ غُصَصٌ».[٢]

ويقول (صلى الله عليه وآله): «الفُرَصُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ».[٣]

فاغتنم هذا العمر القصير وهذه الأيام المعدودة، واستثمر قوة الشباب لتحصيل العلوم التي بها الحياة الأبدية والسعادة الأخروية.

فاعلم أيها العزيز أنك رهن هذه العلوم، فلا يفوتك بعد إتقان هذه العلوم، أن توسع إدراكاتك في علوم أخرى؛ من شأنها رقي حياتك المادية والمعنوية، واجعل نصب عينيك دعاء سيد الساجدين (عليه السلام): «اَللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ، وَ اكْفِنِي مَا يَشْغَلُنِي الِاهْتِمَامُ بِهِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَداً عَنْهُ، وَ اسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ».[٤]

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٧٧، الصفحة ٧٥.

(٢) المصدر السابق: الصفحة ١٦٥.

(٣) همان.

(٤) الصحيفة السجادية: الدعاء العشرون، الجملة الثالثة.

هل يمكن تدارك ما فات من مقامات معنوية؟

يقول بعض علماء الأخلاق[١]:

«ولا تظنن أن ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل ما يعتريها من الكدرة الحاصلة عن معصية من المعاصي يمكن تداركه، فإن ذلك محال، إذ غاية الأمر أن تتبع تلك المعصية بحسنة تمحي آثارها، وتعيد النفس إلى ما كانت عليه قبل تلك المعصية: «اَلتّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ».[٢]

فلا تزداد [النفس] بتلك الحسنة إشراقا و سعادة، ولو جاء بها من دون سيئة لزاد بها نور القلب و بهجته، وحصلت له درجة في الجنة، و لمّا تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة، و انحصرت فائدتها في مجرد عود القلب إلى ما كان عليه قبلها، و هذا نقصان لا حيلة لجبره، و مثال ذلك أن المرآة التي تدنست بالخبث والصدأ إذا مسحت بالمصقلة و إن زال به هذا الخبث، إلا انه لا تزيد به جلاء و صفاء، بخلاف ما إذا لم تتدنس أصلا، فإن الصقل يزيدها صفاء و جلاء، وأشار النبي (صلى الله عليه وآله) بقوله: «مَنْ قارَفَ ذَنْباً، فارَقَهُ عَقْلٌ لَمْ يَعُدْ اِلَيْهِ اَبَداً».[٣]

كان هذا ما أفاد به بعض علماء الأخلاق.

---

(١) جامع السّعادات للنراقي: الجزء ١، الصفحات ٤٩ و٥٠.

(٢) الكافي: الجزء ٢، الصفحة ٤٣٥، الحديث ١٠.

(٣) جامع السّعادات: الجزء ١، الصفحة ٥٠.

تأمل في هذا المطلب

يمكن أن يكون هذا الكلام من وجهة نظر عقلية صحيحا، ولكن من خلال التأمل في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة؛ الواردة عن المعصومين(عليهم السلام) نجد أن هناك حقيقة مختلفة عن هذا التحليل، استنادا إلى آية كريمة وعدت مرتكبي الذنوب الكبيرة بالعذاب الشديد، ولكنها تستثني بالقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.[1]

فعلى الرغم من أن المفسرين اختلفوا وتضاربت آراءهم في كيفية تبديل السيئات بالحسنات، ولكن ظاهر الآية الكريمة يثبت أن التائب من الذنب توبة حقيقية مقرونة بالعمل الصالح يصلح بها ما أفسده، يغفر الله ذنوبه ويمحوها من صحيفة أعماله، لأن الله تعالى غفور، وبما انه رحيم فسيبدّل السيئات حسنات.

عن أبي ذر (رضي الله عنه): «قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: يُؤْتى بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيامةِ فَيُقالُ: اِعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغارَ ذُنُوبِهِ وَ تُخْبَأُ كِبارُها. فَيُقالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذا وَ كَذا وَ هُوَ يُقِرُّ لَيْسَ يُنْكِرُ وَ هُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الكَبائِرِ اَنْ تَجيءَ فَاِذا اَرادَ اللهُ خَيْراً قالَ: اَعْطُوهُ مَكانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنة! فَيَقُولُ: يا رَبِّ لِي ذُنُوبٌ ما رَأَيْتُها هاهُنا. قالَ: وَ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله ضَحِكَ حَتّى بَدَتْ نَواجِذُهُ، ثُمَّ تَلا:

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾».[١]

ورد في أدعية مولانا الإمام السجاد (عليه السلام):«يا مُبَدِّلَ السّيئاتِ بِأَضْعافِها مِنَ الحَسَناتِ، إِنَّكَ ذُو الفَضْلِ العَظيمِ».[٢]

ويمكن أن يكون منشأ مضاعفة الحسنات انه متى ما اقترف العبد ذنبا ثم تاب منه، أبدله الله عز وجل حسنة بدل السيئة، فيكون كمن جاء بالحسنة، والله تعالى يقول: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾.[٣]

لذا – وبفضل الله تبارك وتعالى – فإن كل سيئة من سيئات التائب تبدّل بعشر حسنات، وذلك هو الفوز العظيم.

والحاصل: أن لا إشكال ولا استبعاد لمشيئة الله الحنان المنان، وأنه يمحو بتوبة عبده المذنب تمام آثار الذنوب الظلمانية، لتشرق الحسنات النورانية، ماحية جميع آثار الذنوب.

هذا هو اثر التوبة الحسنة، والتي هي بحد ذاتها حسنة عظيمة تشرق بالنور على نفس التائب، وتطهّر جوهر نفسه من آثار السيئات، بالإضافة إلى تنوره بنور الحسنات، فتكتب بلطف الله تبارك وتعالى في صحيفة أعماله حسنة بدل السيئة، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدير وَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم وَ إِنَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

---

(١) تفسير نور الثّقلين: الجزء ٤، الصفحة ٣٣، الحديث ١١٨.

(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء الثاني، آخر جملة. والدعاء الرابع والعشرون، الجملة الثامنة.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

كما قال الشيخ الرئيس ابن سينا: «وَ اسْتَوسِعْ رَحْمَةَ الله».[١]

أما الحديث الذي أسلفنا ذكره[٢]، فمن الممكن حمله على تلك الذنوب التي تسلب الإنسان توفيق التوبة.

وعلى كل حال فإن العاقل البصير بنفسه هو الذي يستثمر جميع الفرص التي تمر به خلال عمره القصير، لأجل أن يمضيه في تحصيل العلوم (الأهم ثم المهم)، فلا يفرّط بها ولا يقصر في اغتنامها، لان هذا مما يورث الغصة يوم الحسرة، يقول تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.[٣]

---

(١) الإشارات: آخر النمط السابع.

(٢) من قارف ذنباً، فارقه عقل لم يَعُدْ إليه أبداً.

(٣) سورة مريم: الآية ٣٩.

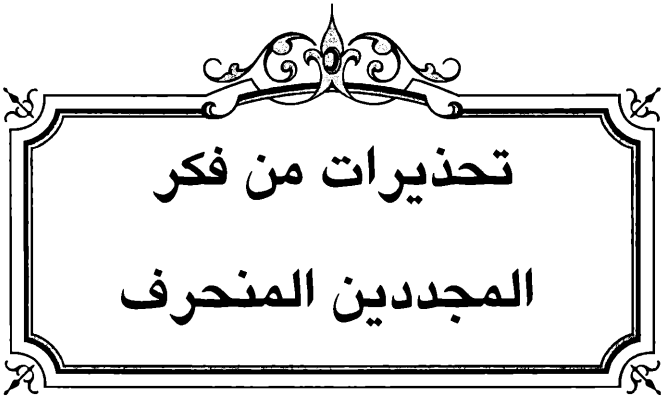
تحذيرات من فكر
المجددين المنحرف

دين الحق واحد في كل زمان [1]

من المهم جدا أن يلتفت الشاب المثقف لأمر غاية في الأهمية، وهو أن صراط الحق المستقيم الذي يجب على المسلم الحنيف أن يسلكه وصولا إلى ساحة القرب الإلهي والكمال المطلق، ما هو إلا دين الحق الذي أرسل به الأنبياء (عليهم السلام) وأُنزلت به الكتب السماوية، وهو ما يعبّر عنه بالدين تارة، وبالشريعة أخرى ، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)﴾. [2]

فلا يمكن لأحد أن يزيد في دين الله أو ينقص شيئا، حتى الأنبياء (عليهم السلام) الذين هم وسائط إبلاغ رسالة الله غير مستثنين من ذلك، يقول عز وجل في سيدنا خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله): ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾. [3]

---

(١) اختلف علماء المسلمين في هل أن الأنبياء أولي العزم أي الأنبياء أصحاب الشرائع السابقة، بعثوا لجميع الناس في عصرهم، أو أن شعاع بعثتهم محدود بقومهم أو بالأمة التي تعيش في تلك الرقعة الجغرافية. لكن حسب ما أفاد به أهل التحقيق، وما هو معروف بين علماء الشيعة، أن شريعة أنبياء أولي العزم عامة لجميع الناس في ذلك العصر، وان الدين في كل زمان واحد لا غير. من اجل تفاصيل اكثر راجع: تفسير الميزان: الجزء ١٠، الصفحة٢٦٨. كما تجدر مراجعة الجزء الثاني من تفسير الميزان: الصفحة ١٥٠، في حديث لمولانا الإمام الرضا (×).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٧١.

(٣) سورة الحاقّة: الآيات ٤٤ إلى ٤٦.

فلو فرضنا أن النبي (صلى الله عليه وآله) تقوّل - وحاشاه من ذلك - على الله عز وجل وكذب عليه، فحينها يكون الله تعالى رادعا له.

إن دين الله في كل زمان هو تلك الشريعة التي أنزلها الله تعالى لعباده بواسطة الأنبياء (عليهم السلام)، وان ما سواها باطل مضمحل لا يوصل إلى الله عز وجل.

لقد بعث الأنبياء والرسل لدعوة الناس لدين الحق، حتى جاء زمن خاتم النبيين(صلى الله عليه وآله)، فأتم الله الدين وجعله ثابتا إلى آخر الدنيا، فلا شريعة سوى شريعة سيّد المرسلين (صلى الله عليه وآله)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ...﴾.[1]

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.[2]

إن معنى الإسلام هو التسليم[3] لله تعالى، والعمل بأوامره وأحكامه، والانتهاء عما حرم ومنع، في كل الأعصار والأمصار.

ففي حال تحقق الإبلاغ، فإن معنى التسليم الحقيقي يكون باتباع الإسلام كشريعة خاتمة لجميع الأديان، لان الإعراض عن الشريعة الخاتمة، والعمل بالشرائع السابقة، يلزم منه الاعتقاد بلغوية هذه الشريعة الخاتمة، فيوجب الاعتقاد أنها خلاف للحكمة.

فلو كان دين النصارى أو اليهود - في عصرنا - هو دين الحق والطريق المستقيم الموصل إلى الله تبارك وتعالى، فإن من اللغو والعبث إرسال نبيٍ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٢) هامان: الآية ٨٥ .

(٣) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «الإسلام هُو التَّسْليم». نهج البلاغة: الحكمة ١٢٠.

خاتم بشريعة الإسلام وتنزيل القرآن الكريم، حيث من الواضح أنها شريعة مختلفة باللحاظ العملي اختلافا شاسعا عن شريعة اليهود و النصارى.

إنه لأمر لغوي، مفتقر للصواب والحكمة، بل هو موجب لافتراق وشقاق الشعوب والمجتمعات، في حال انه تعالى حكيم منزه عن اللغو والعبث.

ولا يخفى أننا نحن المسلمون نعتقد أن جميع ما جاء به الأنبياء (عليهم السلام) حق، يقول تعالى: ﴿...لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...﴾.[1]

إننا نؤمن بان جميع الأنبياء والرسل (عليهم السلام) بعثوا من قبل الله، وكل نبي دعا أهل زمانه إلى شريعة خاصة بأمر منه تعالى تتناسب مع ذلك الزمن، بالإضافة إلى انهم (عليهم السلام) أمروا أن يبشروا بان من يأتي من بعدهم من الأنبياء سيأتي بشريعة اكمل، كما أن اللاحقين صدقوا الأنبياء السابقين [2]، ولذا نعتقد أن الأنبياء السابقين بشروا بالأنبياء اللاحقين، وبالخصوص بشروا بأفضلهم عند الله منزلة وأكملهم شريعة ومرتبة، ألا وهو سيد الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين محمد المصطفى (صلى الله عليه وآله).

هذا هو المعنى الصحيح للإيمان بالأنبياء(عليهم السلام)، وهو عين التسليم لله تعالى، لان هذه الشرائع السابقة هي دين حق لأهل زمانها، لا أن نعتنقها في زماننا الحالي ، لأنها قد نسخت وابطل العمل بها من قبل الله عز وجل بمجيء الشريعة الخاتمة والكاملة، ألا وهي شريعة الإسلام الحنيف.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٢) قال الله في عيسى بن مريم: «وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...»:(سورة الصف: الآية٦).

يكفي بالإسلام طريقا هاديا إلى السعادة الأبدية بأمر من الله تعالى، وان من يهذي بقول خلاف ذلك فليعلم انه يستلزم من قوله أن الإسلام شريعة لغوية عبثية، فيؤدي اعتقاده هذا إلى الكفر بآيات الله، يقول تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.(١)

لقد حذر الله رسوله الخاتم (ﷺ) من اتباع ديانتي اليهود والنصارى، واعتبرهما لا تؤديان إلى الله، حيث أرسل رسوله بالشريعة الخاتمة لجميع الأديان، يقول تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ ...﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.(٢)

نلاحظ من خلال هذه الآيات، أن شرائع جميع أنبياء السلف نزلت بالحق من قبل الله عز وجل، وهذا هو ما يؤمن به اتباع القرآن الكريم ويصدقونه، لكنّ الله اشترط على أهل الكتاب من يهود ونصارى إن كانوا يريدون

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٢) هما: الآيات ١٣٥ إلى ١٣٧.

النجاة أن يؤمنوا بجميع ما آمن به اتباع القرآن، وأن نبوة سيد المرسلين(ﷺ) هي الخاتمة، يقول تعالى في وجوب اتباع أحكام الله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ...﴾.[1]

فكر المجددين الموبوء

يتبين من خلال البحث، أن ما يشاع في أوساط بعض سقام المفكرين ما هو إلا فكر منحرف وخارج عن ضوابط العقل وجادة الصواب، إذ يدّعون بلا دليل:

يجب على الإنسان الإيمان بالله تعالى ومن ثم اتباع أحد الشرائع السماوية التي جاء بها الأنبياء، سواء كانت هذه الشريعة اليهودية أو النصرانية أو الإسلامية، وسواء كان النبي موسى أو عيسى أو محمد، فهذا لا يشكل أي فرق، لان الجميع مرسلون من قبل الله، وطرق سلوك الإنسان نحو الله عديدة، فكل إنسان حرٌ في اختيار دينه، ومن الطبيعي أن يكون دين كل شخص هو ذلك الدين السائد في بلده الذي يقطنه، أو دين العائلة التي ولد في كنفها.

إن هذا الادعاء السقيم الذي يتبناه بعض ممن تسمى بالمفكر في عصرنا، ما هو إلا فكر منحرف كافر، فهو يخالف حكم العقل ويستلزم لغوية تعدد الشرائع السماوية، بالإضافة إلى منافاته لصريح القرآن الذي يلزم البشرية باتباع خاتم الأديان السماوية: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٧.

﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.[١]

اختلاف حال الكفار تجاه دين الحق

يخلص البحث إلى أن دين الحق في كل زمان واحد لا غير، بعث الله به الرسل لتنظيم حياة الناس في ذلك الزمان، ولذا فإن مسؤولية كل عاقل رشيد هي البحث عن دين الحق وصولا إلى العقيدة والعمل الصحيح، فمن يسلك طريق العقل يصل لا محال إلى سبيل الله القويم بكل ثقة وطمأنينة، فيفوز بالتالي بالسعادة الأبدية.

ولكن، لو أن إنسانا تغافل عن الفحص والبحث عن دين الحق، ولم يعتن بحكم العقل والوجدان، ولم يستمع لنداء الفطرة السليمة النابع من صميم النفس؛ الذي يدعو الإنسان إلى البحث عن الدين القويم، فسيكون من وجهة نظر العقل والشرع إنسانا مقصرا في أداء مسؤولياته وتكاليفه، وان كان في ظاهر الأمر متبعا لأحد الديانات أو الشرائع، فلا ينفعه ذلك.

إن مثل هذا الإنسان يُحكم عليه بعد الموت بالعذاب الأليم، فهو كمن بحث عن دين الحق ووجده، ولكنه اعرض عنه عنادا واستكبارا وجحودا[٢]، يقول تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾.[٣]

إن مثل هذا الكافر حاله معلوم في دار القيامة، حيث يقول تعالى:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٢) الجحود: الإنكار.

(٣) سورة النمل: الآية ١٤.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.(١)

ان هاتين الفئتين من الكفار، حتى وان كانت لهم أعمال حسنة، فإن أعمالهم تلك لا تنفعهم بشيء يوم القيامة، إن أعمال هؤلاء كمثل رماد عصف به الريح، يقول تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾.(٢)

أو مثل أعمالهم كسراب يظنه الظَّمآن ماء، فمتى ما قصده لم يجده شيئا، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا... ﴾.(٣)

لكن، من بحث عن دين الحق بالقدر الكافي، وعجز عن الوصول إليه إما لقصوره في الفهم والإدراك، وإما لعدم تمكنه من تجاوز الشبهات ونحوها من الموانع، فانه ببقائه على طريق الباطل لا يصل إلى الحق أبدا.

ولكن، هل يحكم على مثل هذا الشخص بالعقاب؟ وهل يحشر مع الكفار في جهنم خالدا فيها أبدا؟ وهل يستحق الغفران والعفو من العذاب الأبدي لأنه كان مقصرا عملا، وجاحدا روحا؟

الجواب: بحسب الموازين الفقهية التي تقنن وتنظم الجانب الظاهري،

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

(٣) سورة النور: الآية ٣٩.

يحكم على مثل هذا الشخص في دار الدنيا بأحكام الكفار، لعدم انطباق عنوان المسلم المقر بالعقيدة الحقة عليه.

لكن، هل هو من أهل النجاة أو من أهل العقاب؟ إذ أن الحكم بالكفر والإيمان مرتكز على الجانب الروحي والقلبي، فالقضية هنا تتخذ منحى آخر.

إن كان الشخص غير معاند وجاحد، له روح اتباع الحق والحقيقة، مسلّم لها متى وجدها، فانه لا يعد مقصرا ومتهاونا في مقام الفحص والبحث، لأنه واجه في مسيرته نحو الحقيقة عوائق وموانع منعته عن إدراك حقيقة الإسلام المحمدي الأصيل، فحرم من بركات دين الحق.

إن مثل هذا الشخص وان كان من وجهة نظر فقهية محكوم بالكفر، لا ينطبق عليه عنوان المسلم، ولكنه من وجهة نظر الباطن وبسبب تمتعه بروح الانقياد والتسليم للحقيقة، يمكن اعتباره مسلما من هذه الناحية، فهو مسلّمٌ للحق غير معرض عنه.

ولكنه في نهاية المطاف ليس بمسلم يستحق الدخول إلى الجنة، ولا بكافر يستحق الخلود في النار، لان الجنة تنحصر بمن يتبع دين الحق ويعمل به، وهذا الشخص الذي سلك غير طريق الحق لأي سبب كان، لا يؤدي به طريقه إلى الجنة أبدا، ولكنه من جانب آخر لا يحكم عليه بالعذاب الأبدي في جهنم، لان دخول جهنم سببه الكفر والجحود عن قبول الحق بعد معرفته، أو التقصير في البحث عن دين الحق، والحال أن هذا الشخص لا هو بكافر جاحد ولا بمقصر مفرّط، بل هو جاهل قاصر مستضعف، يقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ

فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾.(١)

بيان:

إن الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم، وهم ظالمين لأنفسهم، تقول لهم الملائكة حين نزع أرواحهم: لم انتم في صف الكفار مع أنكم مسلمون؟ فيقولون: كنا في ارض مضيّق علينا فيها، فلم نكن قادرين على أداء واجباتنا الدينية. فتقول لهم الملائكة: ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها، وتخرجوا من أجواء الكفر والفساد؟

وبما أنه ليس لهم عذر مقبول ووجيه في ترك الهجرة إلى بلاد يمكنهم فيها حفظ دينهم، صارت جهنم دارا لهم، باستثناء أولئك الرجال والنساء والأطفال الذين هم حقا في ظروف قاهرة، لا يجدون حلا ولا طريقا للهجرة من بلاد الكفر والفساد، فأولئك يمكن أن يغفر الله لهم، فهو اعلم بحالهم وهو ارحم الراحمين وهو غفور رحيم.

تشير الآية الأولى إلى حال الذين يدّعون كذبا انهم مستضعفون وذلك للنجاة من العذاب، فيسمعون نقضا لكلامهم من الملائكة، أما الآية الثانية فتجسّد لنا ملاك الاستضعاف الحقيقي؛ وهو القصور وعدم القدرة على

---

(١) سورة النساء: الآيات ٩٧ إلى ٩٩.

الاهتداء لدين الحق، و الآية الثالثة فيها بشارة بالمغفرة والعفو عن المستضعفين حقا، فأولئك عسى الله أن يغفر لهم ويعفو عنهم، يقول عز وجل: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.[1]

وتوجد فئة من الناس يوكل أمرهم إلى الله، فإما يعذبهم و إما يتوب عليهم ويغفر لهم، فالله عليم حكيم لا يعاملهم خلافا لحكمته.

ينقل عن الإمام الباقر (عليه السلام) انه قال في هذه الآية الشريفة: «قَوْمٌ كانُوا مُشْرِكِينَ، فَقَتَلُوا مِثْلَ حَمْزَةَ وَجَعْفَراً وَأَشْبَاهَهُمَا مِنَ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلامِ فَوَحَّدُوا اللهَ وَتَرَكُوا الشركَ وَ لَمْ يَعْرِفُوا الإِيمَانَ بِقُلُوبِهِمْ فَيَكُونُوا مِنَ المُؤْمِنِينَ فَتَجِبُ لَهُمُ الجَنَّة، وَ لَمْ يَكُونُوا عَلى جُحُودِهِمْ فَيَكْفُرُوا فَتَجِبُ لَهُمُ النَّارُ، فَهُمْ عَلَى تِلْكَ الحَالِ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ».[2]

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٦.

(٢) تفسير الميزان: الجزء ٩، الصفحة ٤٠٦، عن الكافي.

الاعتقاد بالإمامة

الاهتداء لدين الحق

يتبين من خلال ما سبق من الأبحاث، أن الطريق الوحيد لنجاة الإنسان في عالم الآخرة هو معرفة دين الحق واتباعه، والعمل طبقا للمنظومة الاعتقادية من أصول وفروع.

الآن يجب علينا بمزيد من الجد والاهتمام التعرف على دين الحق الوحيد في العالم، ألا وهو شريعة سيد المرسلين وخاتم النبيين على شارعها وآله آلاف التحية والإكرام.

حيث يجب تقوية وتحكيم الأسس العقائدية والمعرفية، والتي يعبّر عنها بأصول الدين؛ أي تلك الأسس و البنى الرئيسية لدين الإسلام الحنيف، لان دوام وبقاء كل بنيان متوقف على مدى استحكام أسسه، فالشاك بأصول العقيدة يصير متحيرا فاقدا للطمأنينة في مقام العمل بالشريعة والأحكام الفقهية (فروع الدين) مما يشكل عقبة أمام ارتقائه الروحي، فيكون صفر اليدين ليس له نصيب من السعادة الأبدية.

الاعتقاد بالإمامة من ارسخ أسس دين الحق

متى ما رجعنا إلى أسس المعرفة التي أكد عليها الإسلام، وصرح بها الشارع الأقدس (صلى الله عليه وآله)، وجدنا تأكيدا مباشرا بأمر من الله تعالى على أحد أهم أصول الإسلام من حيث تأثيره المباشر في نجاة المسلم، ألا وهو الاعتقاد بالإمامة.

إن الوصول إلى أسس المعرفة متوقف حتما على معرفة الإمام المعصوم المنصوب من قبل الله تعالى.

لقد نَقلت ـ بتواتر كبير ـ اغلب المصادر المعتبرة عند الفريقين، أن رسول‌الله(صلى الله عليه وآله) قال: «مَنْ ماتَ وَ لَمْ يَعْرِفْ إمام زَمانِهِ ماتَ ميتَةً جاهِليَّةً».[1]

فمن مات ولم يعرف الإمام المنصوب من قبل الله تعالى في زمانه، فحاله كمن مات ولم يؤمن بالتوحيد والوحي ونبوة الأنبياء والكتب السماوية والقرآن الكريم، وان كان معتقدا بجميع العقائد الحقة، ومتصفا بجميع الأخلاق الفاضلة، وعاملا بجميع الأعمال الصالحة، لم يفارق طيلة حياته الإسلام والقرآن والصوم والصلاة والمسجد والمحراب والحج والزكاة والجهاد...

ومما يؤيد هذا الأمر حديث عن مولانا الإمام الصادق (عليه السلام)[2]، ضمن رسالة بعثها للمفضل بن عمر، يقول فيها: «اِنَّ مَنْ صَلّى وَ زَكّى وَ حَجَّ وَ

---

(١) ينابيع المودة: الباب ٣٩، الصفحة ١٣٧، و الجمع بين الصحيحين للحميدي: عن إحقاق الحق للقاضي نور الله الشوشتري: الجزء ٢، الصفحة٣٠٦ و بحار الأنوار: الجزء ٢٣، من صفحة ٧٦ إلى ٩٥ مع اختلاف في الألفاظ.

(٢) نحن نعتقد اعتقادا جازما أن الإمام الصادق(عليه السلام) من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وان العترة كما في حديث الثقلين عدل القرآن، وقول العترة هو قول رسول الله (صلى الله عليه وآله).

اعْتَمَرَ وَ فَعَلَ ذلِكَ كُلَّهُ بِغَيْرِ مَعْرِفَةٍ مَنِ افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ طاعَتَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ، لَمْ يُصَلِّ وَ لَمْ يُزَكِّ وَ لَمْ يَحُجَّ وَلَمْ يَعْتَمِرْ وَ لَمْ يَغْتَسِلْ مِنَ الجَنابَةِ وَ لَمْ يُحَرِّمْ لله حَراماً وَ لَمْ يُحِلَّ لله حَلالاً. لَيْسَ لَهُ صَلاةٌ وَ إِنْ رَكَعَ وَ إِنْ سَجَدَ وَ لا لَهُ زَكاةٌ وَ لا حَجٌّ وَ إِنَّما ذلِكَ كُلُّهُ يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ رَجُلٍ مَنَّ اللهُ ـ جَلَّ وَ عَزَّ ـ عَلى خَلْقِهِ بِطاعَتِهِ وَ اَمَرَ بِالأَخْذِ عَنْهُ. فَمَنْ عَرَفَهُ وَ اَخَذَ عَنْهُ اَطاعَ اللهَ».[١]

وعنه (عليه السلام) أيضا انه قال: «عَبَدَ اللهَ حِبْرٌ مِنْ اَحْبارِ بَني اِسْرائيلَ حَتّى صارَ مِثْلَ الخِلالِ فَاَوْحَى اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ اِلَى نَبِيِّ زَمانِهِ: قُلْ لَهُ وَعِزَّتِي وَ جَلالِي وَ جَبَرُوتِي! لَوْ اَنَّكَ عَبَدْتَني حَتّى تَذُوبَ كَما تَذُوبُ الاليَةُ في القِدْرِ ما قَبِلْتُهُ مِنْكَ حَتّى تَأْتِيَني مِنَ البابِ الَّذي اَمَرْتُكَ».[٢]

معرفة الإمام المفترض الطاعة المنصوب من قبل الله

يجب أن نعرف الآن من هو الإمام المفترض الطاعة المنصوب من قبل الله عز وجل؛ والذي تعد معرفته من أركان الإسلام والإيمان، والجهل به يبطل جميع الأعمال الصالحة فتصير «هَباءً مَنْثُورا»[٣].

إذن من هو الإمام الذي يجب اخذ الدين عن طريقه والتسليم له؟

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢٧، الصفحة ١٧٦، ضمن الحديث ٢١.

(٢) همان، الحديث ٢٣.

(٣) في إشارة إلى الآية ٢٣ من سورة الفرقان: «وَ قَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً». روى أبو حمزة الثمالي عن الباقر(عليه السلام) في ذيل هذه الآية: «يَبْعَثُ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ يَومَ القِيامة قَوْماً بَيْنَ أيديهم نُورٌ كَالقَباطي، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: كُن هَباءً مَنْثُوراً. ثُمَّ قالَ: أما وَ الله يا أبا حَمْزة! اَنَّهُمْ كانُوا يَصومُونَ وَ يُصَلُّونَ ولكِنْ كانُوا إذا عُرِضَ لَهُمْ شَيءٌ مِنَ الْحرام أخَذُوهُ وَ إذا ذُكِرَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ فَضْلِ أمير المؤمنين أنْكَرُوهُ». تفسير نور الثقلين: الجزء ٤، الصفحة ٩.

إن تحديد وتعيين شخص الإمام شأن راجع للرسول الأعظم سيدنا محمد المصطفى (صلى الله عليه وآله)، فقد بيّن ذلك في كثير من المواطن والمناسبات مرارا وتكرارا، كما أكد عليها في أواخر أيام حياته بشكل خاص بعد حجة الوداع في يوم الغدير، على مرأى ومسمع من عامة المسلمين، قائلا: «مَعاشِرَ النّاسِ! إنَّ جَبْرَئيلَ هَبَطَ اِلَيَّ مِراراً يَأْمُرُني عَنْ رَبي أنْ اَقُومَ فِي هذَا المَشْهَدِ وَ اُعْلِمَ الابْيَضَ وَ الاسْوَدَ اَنَّ عَلِيَّ بْنَ اَبي طالِبٍ اَخي وَ وَصيي وَ خَليفَتي وَالإمامُ مِنْ بَعْدِي ... فَاعْلَمُوا اَنَّ اللهَ قَدْ نَصَبَهُ لَكُمْ وَلِيّاً وَ اِماماً مُفْتَرَضاً طاعَتُهُ عَلَى المُهاجِرينَ والأنصار وَ عَلَى البادي وَ الحاضِرِ وَ عَلَى الاعْجَمِيّ وَ العَرَبِيِّ وَعَلَى الحُرِّ وَ المَمْلُوكِ وَ عَلَى الابْيَضِ وَ الاسْوَدِ وَعَلى كُل مُوَحِدٍ. فَهُوَ ماضٍ حُكْمُهُ، جائِزٌ قَوْلُهُ، نافِذٌ اَمْرُهُ، مَلْعُونٌ مَنْ خالَفَهُ، مَرحُومٌ مَنْ صَدَّقَهُ وَ اعْلَمُوا ـ مَعاشِرَ النّاسِ ـ اَنَّ عَلِيّاً وَ الطَّيِبينَ مِنْ وُلْدي مِنْ صُلْبِهِ هُمُ الثقْلُ الاصْغَرُ وَ القُرآنُ الثقْلُ الاكْبَرُ؛ لَنْ يَفْتَرِقا حَتّى يَرِدا عَلَيَّ الحَوضَ وَ لا تَحِلُّ اِمْرَةُ المُؤمِنينَ لأحدٍ بَعْدي غَيْرُهُ».[1]

وعنه (صلى الله عليه وآله) انه قال: «مَنْ سَرَّهُ اَنْ يَحْيى حَياتي وَ يَمُوتَ مَماتي وَيَسْكُنَ جَنّةَ عَدْنٍ الَّتي غَرَسَها رَبي، فَلْيُوالِ عَلِيّاً مِنْ بَعْدِي وَلْيَقْتَدِ بِاَهْلِ بَيْتي بِالائِمّةِ مِنْ بَعْدِي. فَاِنَّهُمْ عِتْرَتي؛ خُلِقُوا مِنْ طينَتي وَ رُزِقُوا فَهْمي وَ عِلْمي. فَوَيْلٌ

(١) مقتطفات من الخطبة الغديرية. لتفصيل اكثر راجع: بحار الأنوار: الجزء ٣٧، الصفحة٢٠٦ و روضة الواعظين للفتّال النيشابوري: الصفحة١١٢ و المراقبات للحاج ميرزا جوادآقا ملكي: الصفحة٢٥١.

لِلْمُكَذِّبينَ بِفَضْلِهِمْ مِنْ أُمَّتِي القاطِعينَ فِيهِمْ صِلَتِي! لا أَنالَهُمُ اللهُ شَفاعَتِي».[١]

الدليل إلى الله تعالى لا يكون إلا ذلك الإمام الذي نصبه تعالى للناس هاديا ومرشدا

وهنا سؤال يطرح نفسه: ما السر في وجوب تلقي دين الحق عن طريق إمام معصوم وليس عن طريق غيره؟

إن هذا في غاية الوضوح، إذ أننا نعلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) دعا الناس بأمر من الله تعالى إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.[٢]

وقد أمر الله تعالى عباده أن يلهجوا ليل نهار في كل صلاة مستحبة وواجبة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

فالطريق الوحيد لنجاة الإنسان في الدنيا والآخرة هو السير على هذا الصراط المستقيم.

نحن نعرف أن هذا الصراط المستقيم ليس شيئا يمكن للبشر العادي الإحاطة بجميع أبعاده وحدوده، ومن ثَم سلوكه بكل طمأنينة دون شك أو ريب.

وإلا إذا أمكن معرفة هذا الصراط لما وجدت كل هذه الاختلافات والخلافات في المذاهب، والتي تدعي كل منها إصلاح البشرية، فتجر الشعوب إلى حروب ومعارك لا تعود على العالم إلا بالدمار والخراب والفساد.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم: الجزء ١، الصفحة ٨٦. نقلا عن ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: الجزء ٩، الصفحة ١٧٠ و روضة الواعظين للفتّال النيشابوري: الصفحة ١٢٣.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٧٣.

هيهات، لا يمكن سلوك الطريق بكل ثقة وطمأنينة بعيدا عن الشك والتردد، فلا يمكن الاكتفاء بكتاب الله وحده، وإلا فما وجدت تلك المذاهب الإسلامية العديدة، ولا تفرقت الأمة الإسلامية الواحدة، مع أن لها كتابا واحدا، والحال أن رياح التفرقة في الفكر والعقيدة والعمل عصفت بها، مما أدى إلى تقهقرها دينا ودنيا و آخرة.

ولذا يمكن القول أن حكم العقل والشرع يلزمنا معرفة الصراط المستقيم؛ ذلك الصراط الذي يحتاج إلى شخص دليل عارف بالطريق إلى الله تعالى، منصوب من قبله عز وجل، معصوم من كل خطأ وسهو، ليكون واقفا على جلالة وعظم هذا المقصد الشريف المنتهي إلى الله تعالى، عارفا بموانع الطريق وشروط سلوكه، فهذا حكم العقل تعضده الروايات الشريفة، فقد روي عن الباقر (عليه السلام) انه قال: «يَا أَبَا حَمْزَةَ يَخْرُجُ أَحَدُكُمْ فَرَاسِخَ فَيَطْلُبُ لِنَفْسِهِ دَلِيلاً، وَأَنْتَ بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَجْهَلُ مِنْكَ بِطُرُقِ الأَرْضِ فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ دَلِيلاً».[1]

بيان:

يخاطب مولانا الباقر (عليه السلام) أحد أصحابه؛ وهو أبو حمزة: انك إذا خرجت إلى سفر عدة فراسخ، فانك تحتاج إلى من يدلك ويهديك إلى الطريق، لئلا تقع في خطر الضياع، فكيف بك وأنت تجهل طرق السماء، اكثر مما تجهل طرق الأرض؟ أفلا تحتاج إلى دليل يهديك من قبل الله تعالى،

(١) الكافي: الجزء ١، الصفحة ١٨٤، الحديث ١٠.

ويجنّبك الضياع.

وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) سأله الراوي عن الصراط، فقال: «هُوَ الطَّرِيقُ اِلَى مَعْرِفة الله عَزَّ وَجَلَّ وَهُما صِراطانِ: صِراطٌ فِي الدُّنْيا وَ صِراطٌ فِي الآخِرة، وَ اَمَّا الصراطُ الَّذِي فِي الدُّنْيا، فَهُوَ الإمامُ المُفْتَرَضُ الطّاعة. مَنْ عَرَفَهُ فِي الدُّنْيا وَاقْتَدى بِهُداهُ مَرَّ عَلَى الصراطِ الَّذِي هُوَ جِسْرُ جَهَنَّمَ فِي الآخِرَة، وَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فِي الدُّنْيا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنِ الصراطِ فِي الآخِرَة فَتَرْدى فِي نارِ جَهَنَّمَ».[1]

وعنه (عليه السلام) في حديث آخر: «اَلصراطُ المُسْتَقيمُ اَميرُ المُؤمِنين عَليّ».[2]

ادخلوا البيوت من أبوابها

قال الله تعال:

﴿...وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.[3]

بيان:

ليس البر والأعمال الحسنة بان تدخلوا البيوت من ظهورها، بل البر بان تتقوا الله وتدخلوا البيوت من أبوابها، وتجنبوا مخالفة أوامر الله عز

---

(١) معاني الأخبار: الصفحة ٣٢، الحديث ١.

(٢) همان، الحديث ٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

وجل، عسى أن تكونوا من المفلحين الصالحين.

سأل رجل مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) عن هذه الآية الكريمة، فقال: «نَحْنُ البُيُوتُ اَمَرَ اللهُ اَنْ تُؤْتى اَبْوابُها. نَحْنُ بابُ الله وَبُيُوتُهُ الَّتي يُؤْتى مِنْهُ. فَمَنْ بايَعَنا وَ اَقَرَّ بِوِلايَتِنا فَقَدْ أتى البُيُوتَ مِنْ اَبْوابِها وَ مَنْ خالَفَنا وَ فَضَّلَ عَلَيْنا غَيْرَنا، فَقَدْ أتى البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها».[1]

يستعرض لنا القرآن الكريم قسما من تاريخ بني إسرائيل، الجدير بالاعتبار، يقول عز وجل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.[2]

عندما مكّن الله بني إسرائيل قال لهم: ادخلوا هذه القرية أي بيت المقدس وكلوا من النعم الكثيرة فيها، وادخلوا من الباب الذي أمرناكم بدخوله بخضوع وخشوع، وقولوا: (حطة)، وحطة بمعنى الاستغفار وطلب المغفرة من الله، وسيغفر الله للمحسنين ذنوبهم ويزيدهم من فضله وثوابه.

لكن، امتنع الذين ظلموا أنفسهم، وغيّروا أمر الله، وقالوا قولاً آخر غير

---

(١) تفسير نور الثّقلين: الجزء ١، الصفحة ١٧٧، نقلا عن احتجاج الطبرسي.

(٢) سورة البقرة: الآيات ٥٨ و ٥٩.

الذي قيل لهم مستهزئين، ولذا فقد انزل الله على أولئك عذابا من السماء.

إن هذه الآيات وآيات أخرى وردت في سورة الأعراف (الآية ١٦١)، وسورة المائدة (الآية ٢١ وما بعدها)، دلت على أن بني إسرائيل تعرضوا إلى امتحان الهي، فاختار الله لهم تلك الأرض الخصبة الكثيرة البركات ليسكنوها، واشترط عليهم أن يدخلوا بيت المقدس من باب معين في حال ركوع وانحناء، بشكل يدل على الخضوع والتسليم لله عز وجل، ويقولوا كلمة (حطة) وهي كلمة استغفار، ليغفر الله لهم ذنوبهم ويشملهم بعنايته الخاصة، لكن هؤلاء القوم المعاندين ظلموا أنفسهم واستهزءوا بأمر الله وتخلفوا عن باب حطة، فحكم الله عليهم بالعذاب.

أهل بيت رسول الله (عليهم السلام) باب حطة للمسلمين

من بين جميع المسلمين فإن أهل بيت النبي (عليهم السلام) وهم: علي أمير المؤمنين و الأئمة المعصومون من ولده (عليهم السلام)، هم باب حطة وطريق نجاة من العذاب، وسبيل مؤدي إلى السعادة الأبدية لجميع البشر، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: «إِنَّما مَثَلُ اَهْلِ بَيْتِي فيكُمْ كَمَثَلِ سَفينَة نُوحٍ مَنْ رَكِبَها نَجى وَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْها غَرِقَ، وَ إِنَّما مَثَلُ اَهْلِ بَيْتِي فيكُمْ مَثَلُ بابِ حِطَّةٍ في بَني اِسْرائيلَ، مَنْ دَخَلَهُ غُفِرَ لَهُ».[1]

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) ضمن ذكر مناقبه: «فَاِني سَمِعْتُ رَسُولَ الله

(١) مستدرك الحاكم: الجزء ٣، الصفحة ١٥١ و الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد، نقلا عن السيّد شرف الدّين في المراجعات: الصفحة ٢٣.

يَقُولُ لِي: مَثَلُكَ فِي أُمَّتِي مَثَلُ بابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي اِسْرائيلَ. فَمَنْ دَخَلَ فِي وِلايَتِكَ فَقَدْ دَخَلَ البابَ كَما اَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».[١]

وعن مولانا الإمام الباقر (عليه السلام) انه قال: «نَحْنُ بابُ حِطَّتِكُمْ».[٢]

وقال (عليه السلام) أيضا: «فَلْيَذْهَبِ النّاسُ حَيْثُ شاؤُوا فَوَاللهِ لَيَأْتِيَنَّ الاَمْرُ ها هُنا. وَ اَشارَ بِيَدِهِ اِلَى صَدْرِه».[٣]

بيان:

فليذهب الناس إلى أي مكان شاءوا، والله إن أمر هداية الخلق لا يكون ولا يصدر إلا من هنا، و أشار بيده المباركة إلى صدره الشريف.

ويقول (عليه السلام) لرجلين ضلاّ طريق الحق؛ وهما: سلمة بن كهيل، والحكم بن عتيبة: «شَرِّقا وَ غَرِّبا! لَنْ تَجِدا عِلْماً صَحيحاً اِلّا شَيْئاً يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِنا اَهْلَ البَيْتِ».[٤]

وقال (عليه السلام) أيضا: «كُلُّ ما لَمْ يَخْرُجْ مِنْ هذَا البَيْتِ فَهُوَ باطِلٌ».[٥]

فكل ما لا يصدر من هذا البيت؛ والذي هو بيت ولاية وإمامة علي(عليه السلام) وآل علي (عليهم السلام)، من عقائد وأخلاق وأحكام، ولا يحظى بإمضائهم فهو باطل.

---

(١) تفسير نور الثّقلين: الجزء ١، الصفحة ٨٢ ، الحديث ٢٠٩.

(٢) همان، الصفحة ٨٣.

(٣) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ٩٤، الحديث ٣٤.

(٤) المصدر السابق: الصفحة ٩٢، الحديث ٢٠.

(٥) بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ٩٤، الحديث ٣٢.

يقول مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام):«دَاعٍ دَعَا وَ رَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي وَ اتَّبِعُوا الرَّاعِيَ....نَحْنُ الشِّعَارُ وَ الأَصْحَابُ وَ الخَزَنَة وَ الأَبْوابُ، وَ لا تُؤْتَى البُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوابِهَا سُمّيَ سَارِقاً».(١)

لقد دعاكم الداعي وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله) لدين الحق، وحفظ الإمام المعصوم هذا الدين من التزلزل والانحراف، ومنع الأعداء من الإخلال به، فاستجيبوا للداعي و أطيعوه واتبعوه، لتسعدوا في الدارين، نحن أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله)، نحن من حيث قربنا منه كمثل القميص لبدنه، نحن خزان وحفظة أبواب الإسلام، فلا تدخلوا البيوت من غير أبوابها، فمن فعل كان سارقا، ومن أراد أن يسلك إلى الله ورسوله طريقا غير طريقنا أهل البيت، فلن يكون له من الدين حظ، وسيحيط به في الآخرة عذاب اليم.

والحاصل أن اصل الإمامة والاعتقاد بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة المعصومين من ولده (عليهم السلام)، هو أساس جميع أصول وفروع الدين من عقائد و أخلاق و أعمال، وبدونه تسقط وتبطل جميع المعاني الدينية، كما هو مستفاد من الروايات آنفة الذكر، فمثل العقائد والأخلاق والأعمال كمثل الصفر، يبقى الصفر صفرا وان تجمع معه آلاف الأصفار، إلا إذا كان بجانبه عدد يرفع قيمته.

وكذا الحال في المنظومة العقائدية والعملية، فما لم ترتكز على اصل

---

(١) نهج البلاغة: ضمن الخطبة ١٥٣.

الإمامة، ويجمعها سلك الولاية لأهل البيت (عليهم السلام)، فلا يقبل الله تعالى أي عمل مهما كان مهمّا.

فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «عُنْوانُ صَحيفَة المُؤْمِنِ حُبُّ عَلِيِّ بْنِ أبي طالِبٍ».[١]

وروي عنه (صلى الله عليه وآله) أيضا: «مَعْرِفَة آلِ مُحَمَّدٍ بَراءَة مِنَ النّارِ، وَ حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ جَوازٌ عَلَى الصّراطِ، وَ الوِلايَة لِآلِ مُحَمَّدٍ أمانٌ مِنَ العَذابِ».[٢]

كما ورد في الزيارة الجامعة: «سَعِدَ مَنْ وَالاكُمْ، وَ هَلَكَ مَنْ عَادَاكُمْ، وَ خَابَ مَنْ جَحَدَكُمْ، وَ ضَلَّ مَنْ فَارَقَكُمْ، وَ فَازَ مَنْ تَمَسَّكَ بِكُمْ، وَأَمِنَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْكُمْ، وَ سَلِمَ مَنْ صَدَّقَكُمْ، وَ هُدِيَ مَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ، مَنِ اتَّبَعَكُمْ فَالجَنَّة مَأْوَاهُ، وَ مَنْ خَالَفَكُمْ فَالنَّارُ مَثْواهُ».[٣]

ثنائية التولي و التبري

المطلب المهم الآخر الذي ينبغي الالتفات إليه هو قضية التولي، أي الاعتقاد بإمامة و ولاية آل بيت الرسول (عليهم السلام)، فهذا الاعتقاد من أركان الإسلام الثابتة.

إن تحقق التولي بحسب ما أفادت به الروايات المتظافرة مشروط بأمر غاية في الأهمية وهو (التبري).

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٣٩، الصفحات ٢٢٩ و ٣٠٥. و تاريخ بغداد: الجزء ٤، الصفحة ٤١٠.

(٢) ينابيع المودّة: الصفحة ٢٢، نقلا عن كتاب الإمام عليّ بن أبي طالب للرحماني الهمداني: الصفحة ٣٤٦.

(٣) مفاتيح الجنان: الصفحة ٥٤٦. و هو مقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة، المروية عن مولانا الإمام الهادي(عليه السلام).

التبري هو الاعتقاد بضلالة مخالفي أهل البيت (عليهم السلام)، بحيث يكون القلب مبغضا لهم، مجانبا لهم ولأتباعهم.

إذن لا يتحقّق التولي إلا بالتبرّي، وبدون التولي ـ كما أثبتناه بكل وضوح ـ لا يتحقق الدّين، فقد روي عن مولانا الإمام الرضا (عليه السلام):«كَمالُ الدّينِ وِلايَتُنا وَ البَراءَة مِنْ عَدُوّنا».[١]

وروي عن الصادق (عليه السلام): «قِيلَ لِلصّادِق: اِنَّ فُلاناً يُواليكُمْ اِلّا اَنَّهُ يَضْعُفُ عَنِ البَراءَةِ مِنْ عَدُوّكُمْ. فَقالَ: هَيهاتَ! كَذَبَ مَنِ ادَّعى مَحَبَّتَنا وَ لَمْ يَتَبَرَّأْ مِنْ عَدُوّنا».[٢]

وعن مولانا الإمام الباقر (عليه السلام): «مَنْ اَرادَ اَنْ يَعْلَمَ حُبَّنا، فَلْيَمْتَحِنْ قَلْبَهُ، فإن شارَكَ فِي حُبّنا حُبَّ عَدُوّنا، فَلَيْسَ مِنّا وَ لَسْنا مِنْهُ».[٣]

وقال رجل لأمير المؤمنين (عليه السلام): يا اَميرَ المُؤمنين! اِنّي اُحِبُّكَ وَاُحِبُّ فُلانًا، فقال الإمام (عليه السلام): «اَمّا الآنَ فَاَنْتَ اَعْوَرُ! فَاِمّا اَنْ تَعْمى وَ اِمّا اَنْ تُبْصِرَ».[٤]

يقول الشيخ الصفواني (رحمه الله) وهو أحد العلماء الأجلاء ومن تلامذة الشيخ الكليني (أعلى الله مقامه ونوّر برهانه)، يقول في هذا السّياق: «وَ اعْلَمْ اَنّهُ لا يَتِمُّ الوِلايةِ وَ لا تَخْلُصُ المَحَبَّة وَ لا تَثْبُتُ المَوَدَّة لِآلِ مُحَمَّدٍ اِلّا بِالبَراءَة مِنْ عَدُوّهِم؛ قَريباً كانَ اَوْ بَعيداً. فَلا تَأْخُذْكَ بِهِ رَأْفَة. فإن اللهَ عَزَّ

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢٧، الصفحة ٥٨، الحديث ١٩.

(٢) همان، الحديث ١٨.

(٣) المصدر السابق: الصفحة ٥١، الحديث ١.

(٤) بحارالأنوار: الجزء ٢٧، الصفحة ٥٨، الحديث ١٧.

وَجَلَّ يَقُولُ:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.[1]

فعلى هذا الأساس والمعيار القرآني، فإن شيعة أهل البيت (أعلى الله كلمتهم و أنار برهانهم) لا يولون أي أهمية و قيمة واعتبار حسبي كان أو نسبي غير مقرون بالإيمان والتقوى، أيا كان هذا العنوان: كصحابي النّبي أو زوج النبي أو عم النبي ونحوها، وللآسف فإننا نرى أن هذه الألقاب صارت ذريعة يلهج بها اتباع مدرسة الخلفاء، وتحولت إلى آفة تنخر كيان الإسلام والمسلمين، مما جر ملايين الناس إلى الوقوع في وادي الضلال المظلم.

نعم، لقد سرى هذا التصور الواهي إلى عقول وقلوب اتباع مدرسة الخلافة، فكل من صاحب النبي نهارا أو اكثر فهو محترم ومقدس، ولا يحق لأحد نقده أو تقييمه، كما يعتقدون أيضا أن نقد ما يسمى بأصحاب النبي من الذنوب الكبيرة، بل هو كفر وشرك، وعلى أساس هذه العقيدة الواهنة يصححون مطلق أعمال الأصحاب، حتى وان قاموا بغصب مقام الخلافة، وظلم آل بيت الوحي والنبوة (عليهم السلام) وهتك حرمتهم، أو تغيير أحكام الله بما يحلو لهم، فكل هذا وذاك يؤوله اتباع مدرسة الخلافة تأويلا حسنا، ويحملونه على الصحة!!!

---

(١) المصدر السابق.

ما اعجب هذا؟

نشاهد للأسف الشديد أن عالما كبيرا من علماء السنة المشهورين؛ و هو الشيخ سليم البشري المالكي، الذي كان في عصره شيخا للأزهر، وخلال سلسلة من المناظرات المكتوبة مع العلامة الكبير المجاهد السيد شرف الدين الموسوي العاملي (تدثر) في الإمامة[1]، وبعد أسئلة وأجوبة متواصلة، مستدلة ومبرهنة، كتب في رسالته الخامسة والأربعين للسيد العلامة شرف الدين: «لَوْلا خِلافَةَ الخُلَفاءِ الرّاشِدينَ المَقْطُوعُ بِصِحَّتِها، ما كانَ لَنا مَنْدُوحَة عَنِ المَصيرِ إلى رَأْيِكُمْ وَ النُّزولِ فِي فَهْمِ هذِهِ الآيَة وَ نَحْوِها عَلى حُكْمِكُمْ. لكِنَّ التَّشْكيكَ فِي صِحَّة خِلافَتِهِمْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ مِمّا لا سَبيلَ إلَيْهِ. فَاللّواذُ إلَى التَّأْويلِ إذَنْ مِمّا لابُدَّ مِنْهُ، حَمْلاً لَهُمْ وَ لِمَنْ بايَعَهُمْ عَلَى الصّحَّة. وَالسَّلام».[2]

فلننظر بعين الإنصاف، أليس معنى هذا الكلام أن خلافة الخلفاء، وعلى الرغم من مخالفتها لحكم الله، يجب علينا قبولها ولا نشك اقل شك في صحتها، لان السابقين من الأصحاب والتابعين رضوا بها!

أليس هذا عينه نفس أسلوب المشركين من عبدة الأصنام، إذ ذمه القرآن وسفهه، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

---

(١) بدأت هذه المناظرات في شهر ذي القعدة عام ١٣٢٩ق وانتهت في جمادى الأولى عام ١٣٣٠ق. و قد جمع السيد شرف الدين هذه المناظرات المكتوبة في كتاب اسماه المراجعات، وهو من جملة انفع الكتب و أفضلها، فرحمه الله واسكن روحه الجنان.

(٢) المراجعات: الصفحة١٦٧، المراجعة ٤٥.

شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.[١]

أليس من العجيب أن رجلا يدعي العلم والمعرفة بالإسلام والقرآن، يعرض عن الحق الصريح بكل وقاحة، فبدل أن يجعل القرآن الأصل والميزان، ويزن خلافة الخلفاء بهذا الميزان، وفي حال عدم تطابقها مع الحق، يعطي الحق للقرآن ويعرض عنها مسلّما أمام الله عز وجل!

ولكن، هيهات الأمر عكس ما يبدو، فهم يعتقدون أن خلافة الخلفاء اصل مسلّم به وحق مفروغ منه، وفي حال تقييم الخلافة بميزان القرآن، تراهم يعرضون عن كلام الله لأنه ابطل خلافتهم، حيث يصرحون بكل صلافة وجرأة: «فاللّواذ إلى التّأويل إذن ممّا لابدّ منه».

﴿...فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.[٢]

أما اتباع أهل البيت (أيدهم الله ببرهانه)، فيتبعون ما أمر الله به، إذ يقول عز وجل: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴾.[٣]

إن معيار وملاك الكرامة عند الله تعالى هو التقوى لا شيء آخر، ولذا فنحن اتباع القرآن لا نوالي أعداء الله ورسوله، الذين غصبوا حق أهل البيت (عليهم السلام) وظلموهم، حتى وان كانوا من أصحابه أو أقاربه، أمثال: والد زوج النبي، أو أخ زوج النبي، أو نسيب النبي، أو حتى زوجة النبي، فإننا نبغضهم في الله ونتبرأ إليه منهم، بل ونظهر بغضهم وعداوتهم، لان هذا من

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٠.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

كمال مراتب الإيمان، ومن الشروط المسلّمة للتقرب إلى الله عز وجل، فنلعن من صميم قلوبنا بكرة وأصيلا كل من تعدى حدود الله وخالف أوامره، سائلين الله أن يلعن أرواحهم الخبيثة ويقرنها بالعذاب الشديد، قائلين:

«اَللّهُمَّ العَنْ اَوَّلَ ظالِمٍ ظَلَمَ حَقَّ مُحَمَّدٍ وَ آلِ مُحَمَّدٍ وَآخِرَ تابِعٍ لَهُ عَلى ذلِكَ. اَللّهُمَّ العَنْ جَميعَ الظّالِمينَ لَهُمْ وَانْتَقِمْ مِنْهُمْ؛ اِنَّكَ ذُو نِقْمَة مِنَ المُجْرِمينَ. اَللّهُمَّ العَنْهُمْ لَعْناً وَبيلاً وَ عَذِّبْهُمْ عَذاباً اَليماً وَ احْشُرْهُمْ وَأَتْباعَهُمْ اِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً».

إحذر أيها المسلم! لا يشملنك هذا الحديث

روى ابن أبي يعفور عن مولانا الإمام الصادق (عليه السلام) انه قال: «ثَلاثَة لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة وَ لا يُزَكّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: مَنِ ادَّعَى إمَامَة مِنَ الله لَيْسَتْ لَهُ، وَ مَنْ جَحَدَ إمَاماً مِنَ الله، وَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُمَا فِي الإسْلامِ نَصِيباً».[1]

بيان:

ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة أو كما ورد في حديث آخر (لا ينظر إليهم)، وهم:

المجموعة الأولى: من ادعى مقام الإمامة من الله عز وجل، في حال أنها ليست من حقه.

المجموعة الثانية: من أنكر إمامة المعصوم المنصوب من قبل الله تعالى.

المجموعة الثالثة: من اعتقد أن أيّا من هاتين الفئتين [المدعي للإمامة

(١) الكافي: الجزء ١، الصفحة ٣٧٣، الحديث ٤ و ١٢.

الباطلة أو المنكر للإمام الحق] له نصيب من الإسلام.

يتبين من خلال الحديث الشريف أن الله لا يكلم هؤلاء أو لا ينظر إليهم يوم القيامة نظر لطف ورحمة، بل ينظر إليهم نظرة طرد و نفرة وحرمان.

لذا يجب الحذر واليقظة من أن يوسوس الشيطان الرجيم بواسطة عناوين مزيفة من قبيل الوحدة والاتحاد واحترام الاخوة الإسلامية أو الأخذ بالمشتركات والتغاضي عن المتفردات ونحوها من الشعارات الخادعة.

فلا نسمح للشيطان وحزبه اللعناء بخدش أيماننا، وخصوصا إيمان شبابنا، فيعرضه ـ لا سمح الله ـ لمقايضة الوحدة السياسية بالوحدة العقائدية، فيتصور البسطاء والمغفلون أن الإسلام قسمين: شيعي وسني، وكلا الفريقين يسيران على صراط مستقيم. فهذا مما يؤدي إلى إخراج ركني التولي والتبري من الإسلام المحمدي الأصيل، و حذفهما من عقيدة مذهب أهل البيت (عليهم السلام) فيؤدي إلى هدم وزلزلة أساس الإسلام، ومبادلة الحياة الأبدية بثمن الفتح السياسي وتوسعة الحكومة الإسلامية - والتي هي محض خيال لا اكثر - ذلك هو الخسران المبين، نعوذ بالله من همزات الشياطين.

الوحدة الإسلامية لا تعني التنازل العقائدي

نحن ندرك جيدا أن الأمة الإسلامية تقف قبال عدو مشترك، يطمع بهدم أساس الإسلام، فمن العقل أن يقف الفريقان: السنة والشيعة، في صف واحد للدفاع عن وجود الإسلام، ويتحدوا من اجل محاربة هذا العدو.

ولكن، ألا يستلزم ذلك تنازل شيعة أهل البيت (أعزهم الله) عن التولي والتبري؛ اللذان هما ركنان أساسيان في المذهب، والذي تتوقف حياة

الإسلام والقرآن على هذين الأصلين المسلّمين.

يجب عدم التسليم للفرقة المخالفة سواءً على مستوى البحث والتحقيق الاستدلالي، أو على مستوى الإرشاد والتبليغ في المحافل العامة ووسائل الإعلام، أو حتى في المناهج التعليمية ونحوها، لأن (التولي والتبري) من الثوابت المسلّمة عقلا وشرعا.

فلا نتحجج بلزوم مراعاة الطرف المخالف، خوفا من حصول شرخ في صف الاتحاد، فنستنكف حينها من إظهار عقائدنا الحقة، ونتجنب الصراحة في التعبير.

هذا من شأنه أن يوقع جيل الشباب في دوامة من الإبهام في عقائده، لا والله إنها خيانة عظمى للإسلام والمسلمين، وذنب لا يغتفر عند الله سبحانه وتعالى.

انتبه! لا تصدنك الشخصيات المزيفة عن معرفة الحق و أهله

انقل لك عزيزي القارئ كلمات مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام)، والتي هي حقا تحيي القلوب، فلا يمكن معرفة الحق إلا بمعرفة من تركه وخالفه.

يقول مولانا سيد الوصيين (عليه السلام): «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَ لَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَ لَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ».[1]

بيان:

اعلموا أنكم لن تعرفوا طريق دين الحق والصواب إلا بمعرفة من ترك

(١) نهج البلاغة: القسم الثالث من الخطبة ١٤٧.

ذلك الطريق، ولن تكونوا أوفياء بعهدكم في القرآن بالإيمان بالله ورسوله حتى تعرفوا من نقض هذا العهد والبيعة، ولا يمكن أن تتمسكوا بكتاب الله أو تعملوا بأوامره إلا بمعرفة من تركه ولم يعمل بأحكامه.

إن معرفة أهل الباطل؛ الذين استحوذوا على مقدرات الأمة الإسلامية بكل مكر وخديعة، متظاهرين بأنهم حماة الدين والقرآن، ومطبقو أحكام الله في أرضه، هي السبيل لمعرفة الحق وأهله.

فما لم يعرف الناس الباطل و أهله، انخدعو بهم واعتبروهم أهل الحق، وساروا على نهجهم الخائن لله ورسوله، ذلك النهج الذي أملاه الشيطان على أهل الباطل على انه حكم الله وقانونه، فينحرف الناس عن دين الحق إلى دين الباطل، فينزل الشيطان وحزبه بهم إلى دركات جهنم.

إن فعل أصحاب الباطل السابقين أدى - كما نشاهد الآن - إلى انحراف عظيم في دين الأمة الإسلامية.

فكما هو في الأيمان بوحدانية الله تعالى، حيث يبدأ بنفي كل معبود سواه، فنقول: (لا اله إلا الله)، فالحال في الأيمان بالإمامة والاعتقاد بولاية أهل البيت (عليهم السلام) نفسه، إذ يجب التبري أولا ونفي جميع صلاحيات التصدي لقيادة الأمة من المخالفين، ثم في المرحلة الثانية نثبت إمامة الأئمة الأطهار ونواليهم، يقول الله عز وجل: ﴿...فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

فمن كفر أولا بالطاغوت، فحينئذ يكون قد آمن بالله وتمسك بعروة

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

قوية وثقى متينة، لا يمكن أن تنفصم أو تنفك.

التفتوا جيدا لهذا الحديث

نختم بحثنا هذا بنقل حديث غاية في الوضوح رواه العلامة المجلسي عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام):

أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لأمير المؤمنين (عليه السلام): «يا عَلِيُّ! اَنْتَ مَوْلَى المُؤمِنينَ، وَ الحُجَّة بَعْدِي عَلَى النّاسِ اَجْمَعينَ. اِسْتَوْجَبَ الجَنَّة مَنْ تَوَلّاكَ وَ اسْتَوْجَبَ دُخُولَ النّارِ مَنْ عاداكَ. يا عَلِيُّ! وَالَّذي بَعَثَني بِالنُّبُوَّة وَاصْطَفاني عَلَى جَميعِ البَرِيَّة، لَوْ اَنَّ عَبْداً عَبَدَ اللهَ الفَ عامٍ ما قُبِلَ ذلِكَ مِنْهُ اِلّا بِوِلايَتِكَ وَ وِلايَة الأَئِمَّة مِنْ وُلْدِكَ، وَ اِنَّ وِلايَتَكَ لا تُقْبَلُ اِلّا بِالبَراءَة مِنْ اَعْدائِكَ وَ اَعْداءِ الأئِمَّة مِنْ وُلْدِكَ. بِذلِكَ اَخْبَرَني جَبْرَئيلُ. فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ».[1]

مولاي يا أمير المؤمنين يا إمامي وقائدي، لقد لهجت وسألهج بكل كياني قائلا: «بِأَبِي اَنْتُمْ وَ اُمّي وَ اَهْلِي وَ مالِي وَاُسْرَتي! اُشْهِدُ اللهَ وَاُشْهِدُكُمْ اِنّي مُؤمِنٌ بِكُمْ وَ بِما آمَنْتُمْ بِهِ. كافِرٌ بِعَدُوّكُمْ وَبِما كَفَرْتُمْ بِهِ. مُسْتَبْصِرٌ بِشَأْنِكُمْ وَ بِضَلالَة مَنْ خالَفَكُمْ. مُوالٍ لَكُمْ وَلأَوْلِيائِكُمْ. مُبْغِضٌ لأعْدائِكُمْ وَ مُعادٍ لَهُمْ».[2]

---

(١) بحارالأنوار: الجزء ٢٧، الصفحة ٦٣.

(٢) مقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة.

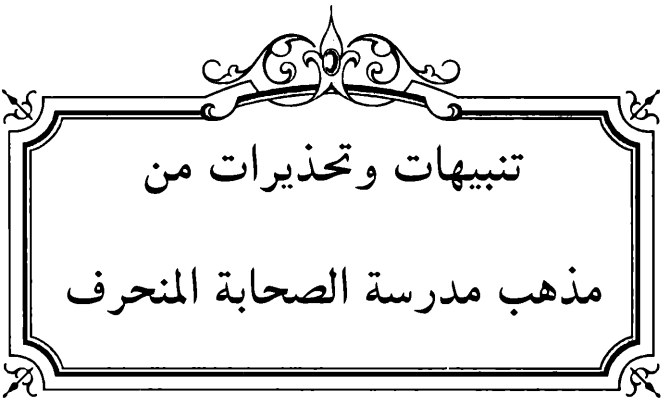
تنبيهات وتحذيرات من
مذهب مدرسة الصحابة المنحرف

أيها المسلم! لا تنخدع بخونة الإسلام وتعتبرهم خدمة الإسلام

من الجدير بالذكر هنا تنبيه وتحذير بعض البسطاء والسذج إن لم نقل المنحرفين فكريا.

فقد تعالت من هنا وهناك بعض كلمات المدح والثناء لبعض المنافقين بامتياز في صدر الإسلام، لما قاموا به من فتوحات أو لإجرائهم بعض حدود الله، أو لتظاهرهم ببساطة العيش والزهد في الدنيا، ونحوها من الشكليات.

البعض يعتبر هذه الأعمال حسنة، وأنها خدمة للإسلام والمسلمين، بل مهمة لنشر الدين والشريعة، متذرعين بان كل من يعمل عملا حسنا يجب الثناء عليه، ومن يعمل عملا سيئا يجب إنكاره عليه.

نقول: يجب أولا الأخذ بعين الاعتبار عظم جريمة غصب مقام الخلافة، و إبعاد الإمام المعصوم والخليفة المنصوب من قبل الله عن مقامه، ولا نتناسى انهم بعملهم هذا حرفوا الأمة الإسلامية عن الصراط المستقيم والطريق القويم.

وليعلم المغفلون: أن هؤلاء المنافقين قد حرفوا المسلمين عن دين الله ورسوله، وهووا بكل من سلك طريقهم إلى هاوية الجحيم، يقول عزّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾».[١]

يقول مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام): «حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ (صلى الله عليه وآله)، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَ اتَّكَلُوا عَلَى الوَلائِجِ، وَ وَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَ هَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا البِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَ أَبْوابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَة، قَدْ مَارُوا فِي الحَيْرَة، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَة، عَلَى سُنَّة مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ».[٢]

حتى إذا توفى الله رسوله الكريم، تقهقر قوم ورجعوا إلى ضلالتهم السابقة بمخالفتهم أمر الله ورسوله، فجرّهم الشيطان إلى طريق يؤدي بسالكه إلى الهلاك، معتمدين على أفكارهم الفاسدة، فوصلوا من هو ليس برحم رسول الله، وقطعوا رحم رسول الله الذي هو الإمام المنصوب من قبل الله، فاجلسوا من هو ليس أهلا لإمامة المسلمين، وهجروا من هم وسيلة الفلاح و أهل بيت النّبي (عليهم السلام) الذين قال الله فيهم: ﴿...قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ...﴾.[٣]

فاعرضوا عن أمر الله وساروا في غيهم، فقلعوا الدين والإيمان من أساسه ومكانه، واخذوا مقام ومسند الخلافة من أهله وسلموه لغيره، ألا

---

(١) سورة ابراهيم: الآيات ٢٨ و ٢٩.

(٢) نهج البلاغة: القسم الثاني من الخطبة ١٥٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ٢٣.

انهم معادن واصل كل خطيئة وذنب، وباب كل ضلالة وجهل، ومنشأ كل فتنة وفساد حدث في الإسلام، فاتبعوا جهلهم وحيرتهم فتقاذفهم الضلال يمينا وشمالا، وأخذتهم سكرته، فساروا على طريق فرعون واتباعه، فغفلوا عن عاقبتهم المشؤومة بسبب ما اقترفوه من معصية، فمنهم (كالخلفاء) أغمضوا أعينهم عن الآخرة، وتوجهوا إلى الدنيا، ومنهم من تبع (الخلفاء) وسار على خطاهم فترك الدين وفرط به.

أخي المسلم! إذا ما التفت إلى هذه الجريمة العظيمة التي قصمت ظهر الإسلام والمسلمين، وتداعياتها المؤلمة؛ من خلال استعراضك تاريخ الإسلام، يتبين لك عظم ما أفسده هؤلاء الذين استتروا بعباءة الإسلام والإيمان، حيث أخفوا وجوههم الحقيقية التي ملؤها الكفر والنفاق، عندها تعرف أي هوّة أوقعوا بها هذه الأمة المسكينة، فينكشف لك أن جميع أعمالهم الحسنة ظاهرا ما هي إلا غاية في السوء والخيانة والإجرام، هذا بالإضافة إلى جرائم أخرى ارتكبوها.

أخي المسلم! إذا احتال عليك شخص ماكر بحيل قذرة، وغصبك بيتك وممتلكاتك، وتسلط عليك وعلى جميع شؤون حياتك، ومن ثم انصرف بكل جد واهتمام إلى توسعة وتعمير وتزيين بيتك، فهل تعتبر أعماله هذه خدمة وإحسانا إليك، أم تعتبر هذا اعتداء ومبالغة في جريمة الغصب، فبالإضافة إلى أن عمله غصب، فهو ظلم وتعدي أيضا.

إننا نعلم جيدا أن من غصب خلافة رسول الله (ﷺ) بكل ظلم وتعدي، وتصرف بمحرابه ومنبره بغير حق، وقام بأعمال ظاهرها حسن؛

مثل: محاربة الكفار وفتح البلدان وتوسعة الدولة والتظاهر بالعدل والسعي في إجراء بعض حدود و أحكام الله، بل بعضهم يحد ولده لارتكاب المعصية، فكل هذه الأعمال ما هي إلا مكر وخديعة وإفساد لدين الله ورسوله، ولا يترتب عليها رضا الله تعالى أو أي اجر وثواب، بل هي من موجبات غضبه وعذابه.

فتكتب الأعمال التي هي حسنة ظاهرا سيئات في صحائف أعمالهم، مضافة إلى سيئات أخرى اقترفوها، لان هؤلاء اتبعوا الهوى وطلبوا الرئاسة وهم ليسوا أهلا لها، وادعوا خلافة مقام النبوة كذباً وزورا، وسلبوا أعلى المناصب الإلهية والتي هي شريان هداية البشرية، وسلكوا بالأمة اعمق وديان الجهل والضلالة.

يقول عزّ و جل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ...﴾.[1]

الدعوة إلى الله مشروطةٌ بأذنه

ذكر الله العليم في كتابه الكريم أحد المناصب الإلهية لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) وهو مقام (الداعي إلى الله)، ومن اللافت انه تعالى قيده بكلمة (بإذنه)، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.[2]

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآيات ٤٥ و ٤٦.

إن تقييد (الداعي إلى الله) بقيد (الإذن) يدل على حقيقة أمر عظيم؛ وهو أن الدعوة إلى الله لا تكون إلا بإذن من قبل صاحب الدعوة وهو الله تعالى، والإذن الإلهي هو نفسه مقام (النبوة والإمامة) الذي خصّ به عباده المخلصين: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ...﴾.[1]

وعلى هذا الأساس، فمن ينتحل مقام (الداعي إلى الله) بلا إذن من الله تعالى، فهو من وجهة نظر القرآن مفتر كذاب، يستحق اشد أنواع العذاب، حتى وان دعا الناس لعبادة الله، و أرشدهم إلى الصدق والأمانة والتقوى، وحارب الكفار موسّعا بذلك دولة الإسلام.

من الممكن أن يعتبرهم السطحيون أو السذج خدمةً للإسلام، ولكنهم من وجهة نظر أصحاب الحقيقة والفكر الثاقب، من الضالين المضلين.

إذن، فهذه الفتوحات المفتقرة إلى حقيقة الدين، والى وجود إمام معصوم على راس القيادة، أدت إلى هتك الحرمات وتعدي حدود الله عز وجل، فشكلت هذه المرحلة تشويها بشعا للإسلام صد الناس عنه، وأدى إلى اعتباره دينا كسائر الأديان الأخرى هدفه توسيع رقعة حكمه على البلدان.

ننقل للقارئ الكريم صورة من تلك الفترة لقائد الجيش الإسلامي آنذاك:

عندما كان خالد بن الوليد - ذلك المنافق السفاح - قائدا لجيش الإسلام الفاتح، أغار على طائفة مسلمة لأهداف غير إنسانية، مخالفا لدين الله منتهكا لحدوده، فقتل رجالهم ونهب أموالهم، وزنى قائد الجيش الإسلامي

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

الفاتح في تلك الليلة بزوجة كبير القوم، وسبى النساء والأطفال.[١]

من الطبيعي أن يُسئ عامة الناس الظن بمثل هذا الدين بل وينزجروا عنه وينفروا منه، بل حتى المفكرين والعلماء يتوقفون عند مثل هذه الجرائم والانتهاكات، فيؤدي ذلك إلى تشتت الأفكار وتشويهها، فتفترق الأمة إلى اثنين وسبعين فرقة.

. نتساءل هنا: هل هذه الفتوحات هي توسعة وازدهار للحكومة الإسلامية بما يرضي الله ورسوله؟

لو كان علي أمير المؤمنين وإمام الحق والحجة المعصوم على أهل الدنيا، هو الخليفة الإسلامي، فهل يمكن أن يسمح لقائد جيشه بانتهاك هذه الحرمات، بل هل يمكن أن يأتي بمثل هذا السفاح الضال والمنافق (خالد بن الوليد) ويقلده منصبا؟

كلا، لقد كان (عليه السلام) حاملا لنبراس هداية العباد، وعارفا تماما بسبل هداية الناس، فبدل أن يفتح البلدان فتح القلوب لدين الله، فكما طوع الألسن لقول كلمة التوحيد، فباستطاعته تطويع القلوب للإسلام، وتنوير القلوب بنور الإيمان والتقوى، لتكون أمة متدينة واعية، تالية لكتاب الله عز وجل وعارفة به. لا أن تكون أمة تالية للكتاب وحقيقتها أنها ابعد ما يكون عنه وعن حقائقه، أمة مسلمة بالقول وفي فهمها بعيدة كل البعد عن حقائق الإسلام.

---

(١) الغدير: الجزء ٧، الصفحة ١٥٨، نقلا عن مصادر الفريقين.

الفتوحات ليست من مسؤوليات النبي (ﷺ)

لقد أرسل الله تعالى نبيه الكريم ليكون للناس بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله، يقول عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾.[1]

فلم يذكر القرآن فتح البلدان من ضمن مسؤولياته (ﷺ)، بل الهدف من البعثة هو تزكية النفوس وتطهير القلوب وتعليم الحقائق والمعارف الإلهية، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ ﴾».[2]

لم يكن الرسول (ﷺ) يريد ما فعله عبيد الدنيا من زيادة في عدد الناس المتظاهرين بالإسلام، من أجل أن يلهج الملايين بذكره ليل نهار، قائلين: (أشهد أن محمدا رسول الله)، كلا كان يريد (ﷺ) قلوبا ملؤها الأيمان، أرواحا عاشقة لجمال قدسه تعالى.

ننقل لك عزيزي القارئ القصة التالية:

بعد بعثة الرسول الكريم (ﷺ) وبدء دعوته في مكة المكرمة، تعرض الرسول إلى ضغوط شديدة من قبل مشركي قريش؛ الذين لم يدخروا شيئا من عداوة وإيذاء نفسي وجسدي إلا و أبدوه، لكنهم كانوا يكفون عن

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٤٥ و ٤٦.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٢.

أذاهم خلال الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

فقد كانت العرب زمن الجاهلية تحفظ حرمة هذه الأشهر، وتكف عن الأذى وسفك الدماء، ولذا فقد كان (ﷺ) يتمتع بحرية نسبية في هذه الأشهر، وخصوصا أيام الحج، فيستغل هذه الأيام لإيصال كلمة التوحيد إلى الناس، محطما بذكر الله شخوص الأصنام التي في القلوب.

لقد كانت مختلف القبائل تأتي إلى مكة لأداء مناسك الحج، وكانت تخيم في عرفات ومنى، وكان رسول الله (ﷺ) ومن اجل إبلاغ رسالته السماوية يقف بكل هيبة ووقار أمام كل خيمة ويدعو أهلها للإسلام، ومن ثم ينصرف.

فكان أبو لهب عم النبي من اشد المشركين وأكثرهم عداوة له، لقد كان يذهب خلف النبي (ﷺ) لإبطال كلمات الله، قائلا: أيها الناس، إن هذا ابن أخي، وأنا عارف بحاله، إنه مجنون، لا تلتفتوا إليه فتسخط عليكم الأصنام.

وصل النبي (ﷺ) إلى خيام بني عامر، وهي من القبائل الكبيرة، فكان زعيم القبيلة واقفا أمام الخيمة ينظر إلى النبي وصنعه، رآه يقف أمام الخيم بكل هيبة ووقار، بتلك الشمائل الوسيمة الأخّاذة، وتلك العيون الآسرة، وتلك الكلمات الرائعة، فيتكلم بكلام ومن ثم ينصرف، لقد تأثر هذا الشخص بالنبي فقال لمن حوله: «وَ اللهِ لَوْ أنّي أخَذْتُ هذَا الفَتى مِنْ قُرَيْشٍ، لأكَلْتُ بِهِ العَرَب».

لم يمض وقت طويل إلا والنبي (ﷺ) قد وصل إلى خيمة ذلك الرجل، فتوقف أمامها وسلم ودعا أهلها إلى دين الله وتوحيده.

لقد كانت قبيلة بني عامر كما أسلفنا من القبائل الكبيرة، وكان فيها

الكثير من الفرسان والشجعان، وكان الرسول وحيدا وأصحابه قلة، فكان أن هاجر بعض المسلمون من مكة، و الذين بقوا فيها لم يقدروا على الدفاع عن النبي، فإذا ما قامت هذه القبيلة الكبيرة لما لها من عدة وعديد، بحماية الرسول فمن الطبيعي أن يحظى الإسلام بالازدهار ، ولا يمكن حينئذ أن يوقفه أحد.

لقد أوضح رسول الله(ﷺ) رسالته السماوية إليهم، فعرفوا مباشرة أن ما قاله هو عين الحقيقة والصواب، يثلج القلب ويشفي الصدر ويحيي العقل ويطهر الفطرة من حجب الأوهام الباطلة، فهبوا جميعا فرحين، ولكن بما أن حب الدنيا والجاه والمقام قد استحوذ عليهم، فقد اشترطوا عليه شروطا لقبول دعوته، فرفضها (ﷺ)، فحرم أولئك القوم أنفسهم من السعادة الأبدية التي جاءتهم على أبوابهم، والشرط هو أن قالوا: «اَرَاَيْتَ اِنْ نَحْنُ تابَعْناكَ فَاَظْهَرَكَ اللهُ عَلى مَنْ خالَفَكَ، اَيَكُونُ لَنَا الامْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟»

فإذا ما سألنا ابرع السياسيين المحنكين في العالم، أي جواب يكون مناسبا في نظركم على هذا الخيار المصيري؟

من الطبيعي انهم سيقولون بضرس قاطع: يجب على النبي في مثل هذه الظروف الحساسة والخطيرة، وهو بأمس الحاجة إلى تقوية دعوته الحقة، أن يوافق ويقبل بشرطهم ويقنعهم باتباعه، إلى أن يصل الأمر إلى اشده، حينئذ إذا رأى أن شرطهم لا صلاح فيه، يقول: بالرغم من أنني في ذلك اليوم وعدتكم، ولكن صلاح الأمة والدولة يقتضي أن يكون الأمر غير ذلك.

إن هذا ما يشير به امهر السياسيين في العالم ليس اليوم وحسب، بل في كل

زمان ومكان، لكننا نرى الرسول (ﷺ) الذي عرف بصدق اللهجة والأمانة، يقول في جوابهم كلمة واحدة: «الامْرُ إِلَى الله: يَضَعُهُ حَيْثُ يَشاءُ».[١]

إن أمر تعيين الخليفة من بعدي، هو من أمر الله تعالى، وليس لي من الأمر شيء، متى ما شاء وضعه حيث يشاء.

لقد امتنع الصادق الأمين عن تأسيس دعوته إلى الله، بدعم من هذه الجموع الغفيرة من أبطال وفرسان وشجعان، أصحاب قلوب خاوية من الإيمان والإخلاص إلى الله، فرسالته إيصال دعوة الله إلى عباده، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

فمتى ما قبلوا دعوته إلى الله واتبعوه، شكر الله على هذا الفضل العظيم، وان لم يقبلوا واعرضوا، فإن الرسول معذور أمام الله عز وجل، لان وظيفته إبلاغ الرسالة إلى العباد لا غير.

هدف الإسلام إحياء روح الإيمان

بعد رحيل الرسول الأكرم (ﷺ)، حلت مصيبة عظيمة بالإسلام والمسلمين، وذلك باستيلاء اتباع الدنيا على الخلافة الإسلامية، غير عابئين بروح الدين والهدف من الرسالة الإلهية، انطلقوا من مبدأ التسلط وحب الدنيا لفتح البلدان، غير مبالين بقاعدة فتح القلوب بدل فتح البلدان، فكانوا يفتحون البلاد تلو البلاد، لكنهم كانوا يشوهون الدين ولا يعرفون المسلمين الجدد حقيقة تعاليم الإسلام الحنيف، ليكونوا مجتمعا إسلاميا عارفا بحقائق الدين.

---

(١) نقلا عن سيرة ابن هشام: الجزء ٢، الصفحة ٦٦ و تاريخ الطبري: الجزء ٣، الصفحة ١٢٠٦.

إن منشأ الكثير من الفتن في تاريخ الإسلام، والتي خلّفت آثارا مروعة على المسلمين، هو ازدياد كم المسلمين عددا، وإغفال تعليمهم حقيقة الإسلام، لأنهم غصبوا الخلافة من أهلها، وتولى غير الصالحين قيادة الأمة الإسلامية.

لم يكن هدف الإسلام إلا تربية الروح لتسمو لأعلى معاني الإنسانية، لا ازدياد عدد الناس الذي هو مجرد تراكم أعداد خاوية من حقيقة الإسلام حول المسجد الحرام، لا شك أن هذه الجموع الغفيرة والتي تجتمع في صفوف الجماعة، هي صورة دنيوية رائعة، لكن ما هي الفائدة إذا كانت هذه الجموع خاوية من الداخل، جموع مسلّمة للطغاة ومنحرفة عن باب الله الأعظم، لا فرق بينهم وبين سائر المشركين من حيث العاقبة.

هل كان (عليه السلام) ليرضى بهذه الجموع الغفيرة الخاوية من معنى الإسلام الحقيقي؟ إن ما يريده الله تعالى هو اتباع أمره من خلال اتباع من نصبه للدين إماما، ليهديهم إلى الصراط القويم.

الملايين منحرفون عن أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب(عليه السلام) وجاهلون بحقه، فما هي النتيجة؟

النتيجة: الحرمان من السعادة الحقيقية، تراهم مصطفين يثيرون دهشة من يراهم، لكن هذه صورة أخرى من صور الدنيا الظاهرية، ليس لها بعد آخر، فلا جنة ولا سعادة أخروية: «اَللّٰهُمَّ العَنْ اَوَّلَ ظالِمٍ ظَلَمَ حَقَّ مُحَمَّدٍ وَ آلِ مُحَمَّدٍ وَ آخِرَ تابِعٍ لَهُ عَلى ذلِكَ».

انتبه أخي المسلم! لا يميلن قلبك للظالمين

ذكرنا سابقا أن عددا من الناس وبسبب جهلهم أو بساطتهم، أو لوسوسة إبليس وحزبه، يتناقلون بعض أعمال رؤوس النفاق، والتي هي بحسب ظاهر الأمر حسنة، ويعتبرونها نشرا لدين الله وشريعة سيد المرسلين.

انطلاقا من مبدأ النصيحة والتذكير، لابد من تذكير تلك النفوس الساذجة في نظرتها للواقع، أن صدور بعض الأعمال الحسنة عن أشخاص خونة للدين، يجب أن يواجه بما امرنا الله تعالى ورسوله من التبري، فصرف ذلك لا يسوغ للبعض أن ينقلوا بعض الأعمال الحسنة التي قام بها أولئك على أسماع عامة الناس، متذرعين بحجج واهية.

نقول لهم: إن صرف صدور هذه الأعمال التي بحسب الظاهر حسنة عن أولئك الذين خانوا الإسلام وغدروا برسوله، لا يجوّز لكم أن تمتدحوهم في المحافل العامة، والحال أننا مأمورون عقلا وشرعا أن نظهر التبري والنفرة منهم.

لان النفوس جبلت على الميل بلا اختيار لكل ما هو حسن، بغضّ النظر عمن صدر منه هذا الحسن.

إن الأمة الإسلامية والتي لبها واصلها الصافي هم شيعة أهل البيت قطعا وجزما، تحكم بلزوم التبري والانزجار والعداوة لجرثومة الرذالة والخباثة والخسة، وذلك بأمر من الله ورسوله وأوصياء رسوله بالحق (عليهم السلام)، فإن تناقل اقل شيء من أعمالهم، أو اقل ميل قلبي نحو أعداء الله، هو بمثابة سمّ مهلك يقحم في نفوس الناس، وبالتالي يحكم عليهم بالهلاك الحتمي، والموت

المعنوي، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ... ﴾.[١]

كلام نوراني من عالم رباني

يُنقل في أحوال العالم الجليل السيد بحر العلوم (أعلى الله مقامه)، والذي هو من جملة السعداء الذين تشرّفوا بلقاء مولانا صاحب العصر والزّمان(عجل الله فرجه)، انه لما قدم حاكم بروجرد للقاء والده العالم الكبير السيد مرتضى بحر العلوم، دخل الحاكم إلى باحة المنزل وشاهد السيد بحر العلوم وكان آنذاك صبيا، وعرف الحاكم أن هذا الصبي ابن السيد مرتضى بحر العلوم، فلاطفه بود ومحبة، بعد ذلك جاء هذا الصبي الصغير ذو الروح الكبيرة الطاهرة إلى والده قائلا: أبي، ليس من الصلاح أن أبقى في هذه المدينة، أرجو أن تذهب بي إلى مكان آخر، خوفا من أن اهلك.

تعجب الوالد من كلام ولده، وقال: لماذا يا ولدي، ما الذي حصل؟

قال السيد بحر العلوم: عندما لاطفني الحاكم، نشأ في قلبي إحساس قليل من الانجذاب نحوه، وفقدت تلك النفرة التي يجب أن تكون في قلبي تجاه الظالمين. إذا بقيت هنا فمن الممكن أن يميل قلبي إلى الظالم اثر تكرار ملاطفته لي، فيوجب لي الهلاك والخسران.

و لهذا السبب هاجر السيد بحر العلوم من مدينة بروجرد.[٢]

---

(١) سورة هود: الآية ١١٣.

(٢) منتخب التّواريخ: الصفحة١٣٨. نقلا عن كتاب الكلمة الطيبة للمحدّث النوري بتصرف.

من المهم أن نعرف

على فرض أن الإسلام شهد تطورا اثر بعض أعمال المنافقين، فهذا لا يوجب لهم سعادة أخروية، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: «إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هذَا الدّينَ بِأَقْوامٍ لا خَلاقَ لَهُمْ».[١]

أي: ليس لهم حظ من الإسلام.

وفي حديث آخر عنه (صلى الله عليه وآله): «وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هذَا الدّينَ بِالرَّجُلِ الفاجِرِ».[٢]

أي: يمكن أن يؤيد الله الإسلام بواسطة رجل منحرف عن الدين، فهل من العقل في شيء أن نتناقل أعمال المنافقين، في حال انهم من اشد أعداء الله ورسوله، إن هذا العمل يؤدي إلى ميل البعض وانجذابهم القلبي نحوهم، إن هذا تسميم لدين الله.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ... ﴾

«اَعاذَنَا الله مِنْ شُرُورِ اَنْفُسِنا وَمِنْ هَمَزاتِ الشَّياطين».

---

(١) المحجة البيضاء: الجزء ٥، الصفحة ٥٤.

(٢) المصدر السابق.

تحذيرات من
مرض التصوف

احذورا من التصوف

الأمر الآخر الذي ينبغي التحذير منه، هو اتجاه البعض نحو التصوف، حيث نرى انتشارا ولو محدودا، مرتبطا ببعض الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية.

وهنا سؤال يطرح نفسه: ما هو التصوف؟

التصوف بعبارة بسيطة وبحسب ما يدعيه المتصوفة: هو معرفة الله والتقرب إليه عن طريق رياضة النفس والزهد في الملذات المادية والشهوات النفسانية.

من المؤكد أن تهذيب النفس وتطهير القلب من الرذائل ، والتحلي بالفضائل من افضل بل و أوجب الطرق لمعرفة الله تعالى والتقرب إليه، وقد تطرقنا لهذا في فصل خاص.

لكن، ما يجب الالتفات إليه، أن هذه الرياضات الروحية وتخلية

النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل، يجب أن تكون مطابقة لما أمر به الشارع المقدس عن طريق الرسول الكريم وأئمة الهدى (عليهم السلام)، يقول تعالى: ﴿...وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.(١)

ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.(٢)

من خلال هذه الآيات الكريمة، نعرف أن سلوك طريق الحق والتأسي برسول الله وأئمة الهدى (عليهم السلام)، هو ما يعبر عنه القرآن بالتقوى، وقد اعتبر أن المعرضين عن هذا الطريق هم المنحرفون عن جادة التقوى، وانهم كفار محكوم عليهم بالعذاب الشديد.

فان كان طريق التصوف مطابقا لبرنامج الإسلام الحنيف، ولما جاء به القرآن وأمر الله به رسوله الكريم ليبلغه للعباد، مبيَّنا من قبل أئمة الهدى ومصابيح الدجى، مؤيدا من قبل الفقهاء الجامعين للشرائط، فهو طريق حسن وشرعي، بل هو سبيل للنجاة.

لقد سلك العظماء من العارفين بالله الواصلين إلى مقام القرب الإلهي من علمائنا، أصحاب النفوس القدسية والكرامات الروحية، طريق تقوى الله

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ٣١ و ٣٢.

تعالى في جميع سكناتهم وحركاتهم قولا وفعلا، وادّوا جميع الواجبات والتزموا بالمستحبات، وتجنبوا جميع المحرمات والمكروهات، فلم يحيدوا عن طريق التقوى، ولم يوصوا إلا به.

ولكن، إذا كان التصوف شيئا آخرا غير ما هو منصوص عليه في الشرع المقدس، فلا يتعدى كونه خيالات وأوهام، تعتري تلك النفس غير المصونة عن الخطا والزلل.

إن هذا النوع من السلوك ليس مؤهلا لهداية الناس، بل هو انحراف عن الطريق القويم والصراط المستقيم، يؤدي بسالكه إلى وادي الهلاك الأبدي. فقد اجمع علماء المسلمين من الفريقين على أن إدخال ما ليس في الدين هو بدعة وحرام.

خلاصة برامج المتصوفة

من المناسب هنا الإشارة إلى قسم من برامج المتصوفة في تهذيب النفس، ليتبين للقارئ الكريم كيف أن عقائدهم و أعمالهم وأحوالهم مخالفة لنهج سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله) و الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

ننقل صورة إجمالية من كتاب رياضة النفس في إحياء العلوم للغزالي، عن الفيض الكاشاني في كتابه المحجة البيضاء[1]:

«أن يعلم السالك أنّ له شروطا لا بدّ من تقديمها في بداية الإرادة، و له معتصم لا بدّ من التمسّك به، وله حصن لا بدّ من التحصّن به؛ ليأمن

(١) الجزء الخامس، الصفحة ١٢٨ إلى ١٣٥.

الأعداء القطّاع لطريقه، وعليه وظائف لا بدّ من ملازمتها في وقت سلوك الطريق، فأمّا الشروط الّتي لابدّ من تقديمها في الإرادة فيرجع مجامعها إلى رفع السدّ و الحجاب: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾».[1]

والسدّ بين المريد و الحقّ أربعة: المال و الجاه و التقليد و المعصية، فإن غلب عليه التعصّب لعقيدة و لم يبق في قلبه متّسع لغيرها صار ذلك قيدا له و حجابا، إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معيّن أصلا.

فإذا قدّم هذه الشروط الأربعة، فيحتاج المريد إلى إمام يقتدي به، وشيخ وأستاذ يسير على نهجه، لا محالة ليهديه إلى سواء السّبيل، فإن سبيل الدّين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، ومن لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك البوادي المهلكة من غير خفير و دليل فقد خاطر بنفسه وربما أهلكها، و يكون المستقلّ بنفسه كالشجرة الّتي تنبت بنفسها فإنّها تجفّ على القرب و إن بقيت مدّة و أورقت لم تثمر.

فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسّك به تمسّك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوّض إليه أمره بالكليّة: «كَالمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيِ الغَسّالِ وَ كَالاعْمى خَلْفَ البَصِيرِ عَلى شاطِئِ البَحْرِ بِحَيْثُ يُفَوّضَ اَمْرَهُ اِلَيْهِ بِالكُلّيَّة وَلا يُخالِفَهُ فِي وِرْدٍ وَ لا ذِكْرٍ وَ لا يُبقِيَ فِي مُتابَعَتِهِ

(١) سورة يس: الآية ٩.

شَيْئاً وَ لا يَذَرُ وَيَعْلَمَ اَنَّ نَفْعَهُ فِي خَطَأِ شَيْخِهِ لَوْ اَخْطَأَ اَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ فِي صَوابِ نَفْسِهِ لَوْ اَصابَ».

فإذا وجد مثل هذا المعتصم، وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق، و هو أربعة أمور: الخلوة والصمت و الجوع و السهر، فهذه تحصن من القواطع.

فلم يبق في قلب المريد علاقة تشغله بعد ذلك، إلا ذكر يلزم قلبه على الدّوام، و يمنعه شيخه من تكثير الأوراد الظاهرة، بل يقتصر على الفرائض و الرّواتب، و يكون ورده وردا واحدا.

قال احد المرشدين لمريده: إن كان يخطر على قلبك من الجمعة إلى الجمعة الّتي تأتيني شيء غير اللّه فحرام عليك أن تأتيني، و هذا التجرّد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة و استيلاء حبّ اللّه على القلب حتّى يكون في صورة العاشق المستهتر الّذي ليس له إلا همّ واحد، فإذا صار كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد فيها و يوكّل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، وعند ذلك يلقنه ذكرا من الأذكار حتّى يشغل به لسانه و قلبه، فيجلس ويقول مثلا: «لا إله إلا اللّه، أو اللّه اللّه اللّه، أو سبحان اللّه» أو ما يأمره الشيخ من الكلمات.

ثمّ إنّ شيخه ينبغي أن ينظر في حاله و يتأمّل في ذكائه وكياسته. فإن هذه مهالك الطريق و مواقع أخطارها، فكم من مريد اشتغل بالرّياضة فغلب عليه خيال فاسد، فلم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه، و اشتغل بالبطالة و سلك طريق الإباحة، و ذلك هو الهلاك العظيم و من تجرّد للذّكر

و دفع العلائق الشّاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنّه قد ركب سفينة الأخطار.

أليست هذه بدعة؟

بعد نقل الفيض الكاشاني كلام الغزالي، علّق عليه:

قد أطال أبو حامد في كلامه الخوض في أودية الضلال، و ادّعى جواز ما هو من قبيل المحال، على أنّه إبداء شريعة و إحداث بدعة شنيعة، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «مَنْ غَشَّ أُمَّتِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَ المَلائِكَةِ وَ النّاسِ اَجْمَعينَ. قيلَ: يا رَسُولَ اللهِ وَ ما غِشُّ أُمَّتِكَ؟ قالَ: اَنْ يَبْتَدِعَ بِدْعَةً يَحْمِلُ النّاسَ عَلَيْها».[١]

وورد في حديث آخر: «اِنَّ للهِ مَلَكاً يُنادي كُلَّ يَوْمٍ: مَنْ خالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَمْ تَنَلْهُ شَفاعَتُهُ».[٢]

مع اشتماله باعترافه على المهالك و المفاسد الّتي لا ينجو منها من ألف ألف واحد.

و لو كان طريق إلى الحقّ أهدى ممّا أرسل به نبيّنا (صلى الله عليه وآله) لجاء به دونه، لأنّ شرعه خير الشرائع كما أنّه خير الأنبياء، و قد ورد في التنزيل:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.[٣]

---

(١) المحجة البيضاء: الجزء ٥، الصفحة ١٣٧.

(٢) همان.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

فلا محالة فيما جاء به كفاية للاهتداء، و ليس فيما جاء به شيء ممّا تكلّفوه، بل إنّما وردت النصوص على خلاف ما وضعوه، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إِنَّهُ وَ الله ما مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُكُم مِنَ النّارِ إِلّا وَ قَدْ نَبَّأْتُكُمْ بِهِ وَ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ وَ ما مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إِلّا وَ قَدْ نَبَّأْتُكُمْ بِهِ وَ أَمَرْتُكُمْ بِه».[١]

أمّا رفضهم المال و الجاه بالمرّة فقد ورد الحثّ الأكيد على طلب الحلال و إحراز قدر قوت السنة من المال، فقد ورد: «إِنَّ مَنْ ألقى كَلَّهُ عَلَى النّاسِ فَهُوَ مَلْعُونٌ».[٢]

«وَ مَنْ اَذَلَّ نَفْسَهُ فَهُوَ مَلُومٌ مَطْعُونٌ».[٣]

و إنّما المذموم حبّ المال و الجاه لا إحرازهما بقدر الضرورة من دون حبّ، وترك التعصّب، فقد ورد: «إنّ أفضل القربات الحبّ في الله و البغض في الله».

و أمّا البيتوتة في بيت وحده فقد ورد: «إنّ الشيطان أجرأ ما يكون على الإنسان و أشدّ ما يهمّ به إذا كان وحده».

و أمّا الاقتصار في الأوراد على كلمة واحدة فقد ورد في فضل تلاوة القرآن: «القُرآنَ عَهْدُ الله اِلَي خَلْقِهِ. فَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ المُسْلِمِ اَنْ يَنْظُرَ فِي

---

(١) تحف العقول: الصفحة ٣٤.

(٢) الكافي: الجزء ٧، الصفحة ٧٢، الحديث ٧، عن الرسول الأكرم (ص).

(٣) نقلا عن وسائل الشيعة: باب كراهة التعرّض للذُلّ.

عَهْدِهِ وَ اَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ فِي كُلّ يَومٍ خَمْسينَ آيَة».[١]

والدّعاء و طلب الحاجة إلى اللّه، فقد ورد أنّ مخّ العبادة الدّعاء.

هذا مع ما ورد في فضل الجمعة و الجماعات و بركة التزاور والاجتماعات، وفي الحديث المتّفق عليه بين الخاصّة و العامّة: «لا رَهْبانِيَّةَ فِي الاِسْلام»[٢]، «اِنَّ رَهْبانِيَّةَ اُمَّتِي، الجُلُوسُ فِي المَساجِدِ».[٣]

إلى غير ذلك ممّا يباين طريقة هؤلاء، فهؤلاء المبتدعون جمعوا بين الجهل و سوء الأدب مع اللّه و رسوله، أمّا الجهل فلكونهم ما عرفوا وجوه الحكمة فيما كلّف اللّه به عباده من الأوامر و النواهي على حسب ما يليق بهم و بما هو أوفق لأفهامهم وأمزجتهم، و أمّا سوء أدبهم فمعارضتهم له سبحانه و لرسوله بما وضعوه من عند أنفسهم، ممّا زعموه طريقا إلى معرفة اللّه و هم الّذين رووا عن النبيّ (صلى الله عليه وآله)أنّه قال: «مَنْ اَحْدَثَ فِي دِينِنا ما لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ».[٤]

و في حديث آخر: «إنّ لله ملكا ينادي كلّ يوم: من خالف سنّة رسول الله لم تنله شفاعته».

التسليم للشيخ من اكبر البدع

من جملة البدع المهلكة في التصوف، هي الانقياد الكامل واتخاذ المعتصم.

---

(١) المصدر السابق: الصفحة ٢٢٣.

(٢) سفينة البحار: الجزء١، مادّة (رهب).

(٣) نقلا عن مصابيح السنّة للبَغوي: الجزء ١، الصفحة ٤٩.

(٤) نقلا عن سنن ابن ماجة و احمد: الجزء ٦، الصفحة ٢٧٠.

وكما أسلفنا، فإن أرباب التصوف يعتقدون انه يجب على المريد السالك أن يختار شيخا ليسلك به وادي السير والسلوك، ويجب على المريد أن يسلّم تماما لشيخه، ولا يخالفه في صغيرة أو كبيرة، لان نجاة المريد ونجاحه رهن إطاعته لمعتصمه، حتى وان كان ما يأمر به الشيخ خطأ، لان خطأ الشيخ انفع من صواب المريد.

وهذا هو الضلال الكبير والانحراف الخطير، فحسب ما اعترف به المتصوفة، فإن الشيخ ليس معصوما فيمكن أن يخطئ، فمن الوارد جدا أن يلتبس الأمر على الشيخ ويجر نفسه والمريد إلى دار البوار، كما شاهدنا مرارا وتكرارا.

فالبعض منهم وفي أثناء الرياضة تختلط عليه أمزجته ويهتز بنيانه وتلتبس عليه الأمور فيجن تماما، وصنف آخر يترك عقيدته ويدخل وادي الكفر والإلحاد.

والحاصل أن هؤلاء المشيخة المعظمون!!! كثيرا ما يشاهدون هذه الأشياء أو يقعون أنفسهم فيها، فيعتبرون الاختلالات والانحرافات جذبة وعشق، وكثيرا ما نرى انهم يسمون المجانين بالعشاق الولهين!!! [١]

يقول مولانا وإمامنا الصادق (عليه السلام): «إِيّاكَ وَ أَنْ تَنْصِبَ رَجُلاً دُونَ الحُجَّة فَتُصَدّقَهُ فِي كُلّ ما قالَ». [٢]

---

(١) راجع قصّة الشيخ إبراهيم المجذوب في كتاب نفحات الأنس للجامي: الصفحة ٤٧٧.

(٢) معاني الأخبار: الصفحة ١٦٩ و بحارالأنوار: الجزء ٢، الصفحة ٨٣ ، آخر قسم من الحديث ٥ و المحجةالبيضاء: الجزء٥ ، الصفحة ١٣٠.

يقول مولانا ومعتصمنا الإمام الباقر (عليه السلام):«كُلُّ مَنْ دَانَ اللهَ بِعِبَادَة يُجْهِدُ فِيهَا نَفْسَهُ وَ لا إمَامَ لَهُ مِنَ الله فَسَعْيُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ وَ هُوَ ضَالٌّ مُتَحَيِّرٌ وَ اللهُ شَانِئٌ لأعْمَالِهِ....وَ إنْ مَاتَ عَلى هَذِهِ الحَالِ مَاتَ مِيتَة كُفْرٍ وَ نِفَاقٍ...».[١]

وروي عن الصادق (عليه السلام) انه قال: «وَ الله لَوْ أنَّ إبْلِيسَ سَجَدَ لله تَعالى بَعْدَ المَعْصِيَة وَالتَّكَبُّرِ عُمْرَ الدُّنْيا ما نَفَعَهُ وَ لا قَبِلَهُ اللهُ تَعالى ما لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ كَما أمَرَهُ اللهُ أنْ يَسْجُدَ لَهُ، وَ كَذلِكَ هذِهِ الأمة العاصِيَة المَفْتُونَة بَعْدَ نَبيِّها(صلى الله عليه وآله) وَ بَعْدَ تَرْكِهِمُ الإمامَ الَّذِي نَصَبَهُ نَبِيُّهُمْ(صلى الله عليه وآله) فَلَنْ يَقْبَلَ اللهُ لَهُمْ عَمَلاً وَ لَنْ يَرْفَعَ لَهُمْ حَسَنَة حَتّى يَأْتُوا اللهَ مِنْ حَيْثُ أمَرَهُمْ وَيَتَوَلَّوُا الإمامَ الَّذِي أُمِرُوا بِوِلايَتِهِ وَ يَدْخُلُوا فِي البابِ الَّذِي فَتَحَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ لَهُمْ».[٢]

إذن، موضوع التسليم المحض لغير الإمام المعصوم من مرشد وشيخ وقطب وغير ذلك، بدعة وعبادة للطاغوت، أمر الله أهل الأيمان بتجنبها، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾».[٣]

اشتقت كلمة الطاغوت من (الطغيان)، فهي بمعنى التعدي والتجاوز للحد، وتطلق على كل متجاوز للحد، وكل معبود باطل ومطاع خارج عن مسير الشريعة المحمدية الغراء، هذا هو كلام أئمة الهدى (عليهم السلام).

وخلاصة القول: أننا بعد الإيمان بالله ورسوله الكريم عن طريق الفطرة

---

(١) الكافي: الجزء ١، الصفحة ٣٧٥.

(٢) المحجة البيضاء: الجزء ٥، الصفحة ١٣٩.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٧.

السليمة، فإن العقل والشرع يلزمنا بالتسليم للإمام المعصوم عن الخطأ والمنصوب من قبل الله عز وجل بواسطة نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله)، ولا يوجد عندنا غير الحجج المعصومين (عليهم السلام)، الذين تظافرت الروايات عن الرسول(صلى الله عليه وآله) بأوصافهم ونعوتهم المباركة بل بأسمائهم؛ أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وآخرهم الحجة بن الحسن المهدي (عجل الله فرجه الشريف).

فلا يوجد في الإسلام إمام معصوم منصوب من قبل الله غيرهم، فهم الأدلاء على الله، يسلكون بالعباد الطريق القويم المؤدي إلى القرب من الله.

فقد ورد عنهم (عليهم السلام) روايات صحيحة غاية في الوثاقة في جميع ما يحتاجه المسلم من عقائد و أخلاق و أحكام شرعية، و بينوا الأحكام الشرعية من واجبات ومحرمات، وآداب وسنن مستحبات، لتكون طريقا للسلوك إلى الله.

أما في زمن غيبة الحجة الثاني عشر (عجل الله فرجه الشريف)، فإن الشيعة أعزهم الله يرجعون إلى الفقهاء الجامعين للشرائط الحاملين للواء الدين، بأمر من الله ورسوله و الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

فنحن في مقام تحصيل المعارف الإسلامية والأخذ ببرامج السير والسلوك الروحي ليس لنا مرجع ولا مستمسك إلا علماؤنا الفقهاء الجامعين لشروط الإفتاء، المبيّنين لنهج المعصومين (عليهم السلام)، وإذا ما اتخذنا من سواهم قدوة بأي عنوان كان، كالشيخ أو المرشد أو القطب ونحوها من الترهات، فهذه بدعة في الدين وضلالة، ومرتكبها من عبدة الطاغوت واتباع الشيطان الرجيم.

عدة روايات يجب الالتفات إليها

روى المحدث القمي (رحمه الله) في كتابه سفينة البحار نقلا عن كتاب حديقة الشيعة للعالم الرباني المقدس الاردبيلي، بسند متصل إلى محمد بن الحسين بن أبي الخطاب:

روى الحسين بن أبي الخطاب ، قال : كنت مع أبي الحسن الهادي (عليه السلام) في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) فأتاه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفري ، وكان بليغا وله منزلة مرموقة عند الإمام (عليه السلام)، وبينما نحن وقوف إذ دخل جماعة من الصوفية المسجد فجلسوا في جانب منه ، وأخذوا بالتهليل ، فالتفت الإمام إلى أصحابه فقال لهم : «لا تَلْتَفِتُوا إلى هؤُلاءِ الخَدّاعينَ! فَإنَّهُمْ حُلَفاءُ الشَّياطينِ وَ مُخَرِّبُو قَواعِدِ الدّينِ. يَتَزَهَّدُونَ لِراحَةِ الأجْسامِ وَيَتَهَجَّدُونَ لِتَصْييد الأنْعامِ. يَتَجَوَّعُونَ عُمُراً حَتّى يُدَيِّخُوا لِلإيكافِ حُمُراً. لا يُهَلِّلُونَ إلا لِغُرُورِ النّاسِ وَ لا يُقَلِّلُونَ الغَذاءَ إلّا لِمَلْءِ العِساسِ وَاخْتِلاسِ قَلْبِ الدّفْناسِ. يَتَكَلَّمُونَ النّاسَ بِإمْلائِهِمْ فِي الحُبِّ وَ يَطْرَحُونَهُمْ بِإدْلائِهِمْ فِي الجُبِّ. اَوْرادُهُمُ الرَّقْصُ وَ التَّصْدِيَة وَ اَذْكارُهُمُ التَّرَنُّمُ وَ التَّغْنِيَة فَلا يَتَّبِعُهُمْ إلا السُّفَهاءُ وَ لا يَعْتَقِدُ بِهِمْ إلا الحُمقاءُ. فَمَنْ ذَهَبَ إلى زِيارَة اَحَدٍ مِنْهُمْ حَيّاً أو مَيّتاً فَكَاَنَّما ذَهَبَ إلى زِيارَة الشَّيْطانِ وَ عَبَدَة الاوْثانِ وَ مَنْ اَعانَ اَحَداً مِنْهُمْ، فَكَاَنَّما اَعانَ يَزيدَ وَ مُعاوِيَة وَ اَبا سُفْيانَ».

قال له رجل من أصحابه: وإن كان معترفا بحقوقكم ؟ قال: فنظر إليه شبه المغضب وقال: «دَعْ ذا عَنْك! مَنِ اعْتَرَفَ بِحُقُوقِنا، لَمْ يَذْهَبْ فِي عُقوقِنا! اَمَا تَدْرِي اَنَّهُمْ اَخَسُّ طَوائِفِ الصُّوفِيَّة؟ وَالصُّوفِيَّة كُلُّهُمْ مِنْ مُخالِفينا وَ

طَرِيقَتُهُمْ مُغايِرَة لِطَرِيقَتِنا وَ اِنْ هُمْ اِلّا نَصارى وَمَجُوسُ هذِهِ الاُمَّة. اُولئِكَ الَّذِينَ يَجْهَدُونَ فِي اِطْفاءِ نُورِ اللهِ وَ اللهُ يُتِمّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الكافِرونَ».[١]

وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: «لا يَقُومُ السّاعَة عَلى اُمَّتِي حَتّى يَقُومَ قَوْمٌ مِنْ اُمَّتِي اِسْمُهُمُ الصُّوفِيَّة لَيْسُوا مِنّي وَ اِنَّهُمْ يُحَلِّقُونَ لِلذِّكْرِ وَيَرْفَعُونَ اَصْواتَهُمْ يَظُنُّونَ اَنَّهُمْ عَلى طَرِيقَتِي بَلْ هُمْ اَضَلُّ مِنَ الكُفّارِ وَ هُمْ اَهْلُ النّارِ...».[٢]

وسُئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن الصوفية وما يقول فيها، فقال: «اِنَّهُمْ اَعْداؤُنا. فَمَن مالَ اِلَيْهِمْ فَهُوَ مِنْهُمْ وَ يُحْشَرُ مَعَهُمْ وَ سَيَكُونُ اَقْوامٌ يَدَّعُونَ حُبَّنا وَ يَميلُونَ اِلَيْهِمْ وَيَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ وَ يُلَقِّبُونَ اَنْفُسَهُمْ بِلَقَبِهِمْ وَ يُؤَوِّلُونَ اَقْوالَهُمْ. اَلا فَمَنْ مالَ اِلَيْهِمْ فَلَيْسَ مِنّا وَ اِنّا مِنْهُ بِراءٌ وَمَنْ اَنْكَرَهُمْ وَ رَدَّ عَلَيْهِمْ كانَ كَمَنْ جاهَدَ الكُفّارَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ».[٣]

تذكر واجب

وردت روايات عديدة في قدح وذم الصوفية في كثير من الكتب المعتبرة عند الفريقين، ولكن المقدس الاردبيلي (رحمه الله) ولا يخفى انه من الشخصيات العلمية البارزة بين فقهاء الشيعة، والذي اشتهر بزهده وتقواه، قد وجه ضربة قاضية من خلال كتابه القيم (حديقة الشيعة)، فنقل أحاديث عديدة وصريحة قصمت ظهر التصوف و أثبتت انحرافه، والحق أن كتابه هذا صار

---

(١) سفينة البحار: الجزء ٢، مادّة (صوف)، الصفحة ٥٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) همان: الصفحة ٥٧.

اكبر عقبة في طريق انتشار التصوف بين الشيعة، ولذا فإن اتباع التصوف اللذين تلقوا صفعة موجعة منه سعوا جاهدين للقدح بشخص المحقق الاردبيلي المتفق على صلاحه وورعه وعلمه، وبما انهم لم يستطيعوا ذلك، فقد شككوا في صحة الروايات الواردة ليسقطوها عن الاعتبار.

كما وجهوا هذه الروايات الواردة في ذم المتصوفة على أنها واردة في المتصوفة من السنة، وليس لها علاقة بالمتصوفة من الشيعة.

وعندما لم يستطيعوا ذلك أيضا، شككوا في اصل نسبة كتاب حديقة الشيعة، وانه موضوع وليس له علاقة بالمحقق الاردبيلي!

لكنّ محاولاتهم هذه باءت بالفشل، لان الروايات صريحة في ذم من اتبع مسلك الصوفية، كما نقلنا الرواية المنقولة عن الإمام الهادي (عليه السلام) والتي ذم فيها الصوفية، فقال له أحد أصحابه:

حتى لو كان الصوفي معترفا بحقكم؟ فنظر إليه الإمام غاضبا، وقال: «دَعْ ذا عَنْك! مَنِ اعْتَرَفَ بِحُقُوقِنا، لَمْ يَذْهَبْ فِي عُقوقِنا! أَمَا تَدْرِي أَنَّهُمْ أَخَسُّ طَوائِفِ الصُّوفِيَّة؟ وَ الصُّوفِيَّة كُلُّهُمْ مِنْ مُخالِفينا وَطَرِيقَتُهُمْ مُغايِرَة لِطَرِيقَتِنا وَ إِنْ هُمْ إلا نَصارى وَمَجُوسُ هذِهِ الأُمَّة».

أما صحة أو عدم صحة نسبة كتاب (حدائق الشيعة) للمرحوم الاردبيلي، فهو أمر راجع إلى العلماء المختصين من أهل التدقيق والتحقيق.

ولكن، لقد صرح علماؤنا الكبار والذين لهم باع طويل في التأليف والتحقيق، وامضوا شطرا كبيرا من أعمارهم المباركة في تنقيح وتصحيح الكتب، أن الكتاب النفيس (حديقة الشيعة) من افضل مؤلفات المحقق

المقدس الآخوند الملا احمد الاردبيلي.[١]

احذروا وساوس إبليس

من الفخاخ التي ينصبها المتصوفة لصيد السذج من الناس هي قضية العشق، والأسرار المخفية.

لقد وضع المتصوفة خططا مضلة، كان أبرزها العشق؛ وانه هو الحاكم والمطاع في مدينة الروح، وهو الطائر الذي يجوب أجواء المعارف والكشف والشهود، وان العقل بمثابة الرجل الوحيدة للكرسي لا يمكن الركون إليها.

أما العلم، فهو اكثر الحجب ظلمانية على القلب، وان المعارف الأصيلة للإسلام ما هي إلا أسرار مخفية مكتومة عن إدراك وفهم سالكي طريق العقل والعلم، ولا يمكن أن يكشف الستار عنها إلا أولئك الذين يحلقون في سماء العشق، فلا يمكن للسان أن يعبر عنها، ولا للآذان أن تسمعها، فالأمر يحتاج إلى جذبة من جذبات العشق لتزج النفس في رياضات العشق، ووصال المعشوق.

العجيب في الأمر أن أولئك الذين ادعوا الوصول قد خرست ألسنتهم وكلّت عقولهم!

فما أروعه من طريق! لا يحتاج إلى مشقة طلب العلم، ولا الدراسة والبحث، ولا إقامة البرهان والاستدلال العقلي والنقلي، فهو لا يحتاج

---

(١) من يرغب في الرجوع إلى أسماء هؤلاء الأعلام فليراجع كتاب سفينة البحار للمحدث القمي: الجزء٢، مادة (صوف)، الصفحة ٥٨.

سوى إلى زاوية منعزلة، ورأس بهيمة يطرقه إلى الأرض ليجوب به عوالم الحيوان، فيجلى القلب من صدأ الحق والحقيقة بواسطة الرياضات النفسية المبتدعة التي يأمر بها المرشد والقطب، ثم يرفرف بأوهامه نحو المعشوق، فيكشف المعشوق بدوره عن جميع أسراره!!!

لاشك أن هذه البرامج السلوكية الروحية المرتكزة على الأحاسيس قد أساءت استخدام غريزة الحب والعشق، تلك الغريزة الموجودة في جميع البشر، والمتمتعة بالحدة والشدة الفريدتان من نوعهما، هذه الغريزة التي أشعلت طوال التاريخ لهيبا في نفس الإنسان، فرسمت حد السعادة والشقاء، فمن الطبيعي أن ينجر المغفلون البسطاء، وبالأخص أولئك العاطفيين منهم نحو هذا الفخ.

خاصة أولئك الذين يميلون إلى الشعر الغزلي المشتمل على ألفاظ العشق والعاشق والمعشوق والفراق والوصال ونحوها، فيمني أولئك المغفلين الذين أطبقت عواطفهم على عقولهم، المتخبطين في وادي الحيرة من غير هدى ولا كتاب منير، للقاء المعشوق الأوحد والمكاشفة ونيل الأسرار المخفية، فينجذب هؤلاء بقوة نحو هذه الكلمات، ويتبعون أصحاب الأوهام والخيالات الفاسدة من الصوفية، يمنونهم كل مرة بأنكم انتم نخبة العرفاء وأنكم جاهزون للتحليق بلا عودة!!!

و الآخرون ما هم إلا جمادات ليس فيها روح، لا يمكنهم التحليق في فضاء الملكوت الأعلى!!!

إياكم وسلوك طريق الضياع

ننهي بحثنا هذا بنقل كلام نوراني لمولى المتقين والعارفين سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، في وصية لابنه الإمام أبي محمد الحسن المجتبى (عليه السلام) سيد شباب أهل الجنة، عسى أن تنير هذه الكلمات المباركة الطريق لمن ضل سبيله: «وَ أَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فإن الكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ؛ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوالِ».[1]

ويقول مولانا الإمام الصادق (عليه السلام) محذرا شيعته: «إِيّاكَ وَ أَنْ تَنْصِبَ رَجُلاً دُونَ الحُجَّةِ فَتُصَدِّقَهُ فِي كُلِّ ما قالَ».[2]

أيها الاخوة المؤمنون والأعزاء، انتبهوا جيدا، فإن البلايا ليست واحدة أو اثنتان أو مائة أو مائتان، فالشيطان يأتينا كل يوم بفتنة وبدعة جديدة، متلبسا ومتنكرا بلباس الخديعة، واعلموا أن الصراط المستقيم: «أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَ أَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ».

ولذا نرفع أيدينا بالدعاء متوجهين إلى الله القريب المجيب، متوسلين ببقية الله الأعظم مولانا صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، أن يمن علينا بسلامة الدين والدنيا والآخرة، وان نخرج من هذه الدنيا متجاوزين عقبات الشيطان، وان يحفظنا من طوارق الليل والنهار، لنلقى الله تعالى بوجوه مبيضة، إلهنا آمين يا رب العالمين.

---

(١) نهج البلاغة: الرسالة ٣١، القسم الثاني.

(٢) معاني الأخبار: الصفحة١٦٩ و بحارالأنوار: الجزء٢، الصفحة ٨٣ ، آخر قسم من الحديث٥ و المحجة البيضاء: الجزء٥ ، الصفحة ١٣٠.

والحمدُلله أوَّلاً وَ آخِراً وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الّذينَ اصْطَفى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ

مَصابيح الدُّجى

والسّلام عليكم و رحمة الله و بركاته

يوم الجمعة الموافق للخامس عشر من شوال سنة ١٤١٥

للهجرة النبوية المباركة.

السيّد محمّد ضياء آبادي

فهرس المحتويات

فضل العلم و شرفه ٧

مفرح ولكن في نفس الوقت محزن! ٨

أي علم وأي معلم؟ ١٠

الغاية من الكتاب ١١

أي العلوم يجب طلبها؟

الوجوب العيني والكفائي في تحصيل علم العقائد والأحكام ٢٢

تحصيل أصول العقائد:

تحصيل العلم بالمسائل العقائدية عن طريق الاستدلال العقلي واجب على كل مسلم وجوبا عينيّا ٣١

الاجتهاد والتقليد:

يجب على كل مسلم وجوبا عينيا تحصيل علم الأحكام الشرعية عن طريق الاجتهاد أو التقليد ٣٧

ما هو معنى الاجتهاد والتقليد؟ ٣٧

الاجتهاد المرفوض ٣٨

الاجتهاد المقبول ٣٩

الاجتهاد لا يصلح لأيٍّ كان ٤١

أهم شروط الاجتهاد ٤٣

كلامُ فقيهٍ كبير ٤٤

قول أستاذ بارع..... ٤٥
أقوال المعصومين (عليهم السلام) في شدة الاهتمام بهذا المطلب..... ٤٥
تورع العلماء والفقهاء عن التصدي للإفتاء..... ٤٧
التقليد..... ٤٩
التقليد المرفوض..... ٤٩
التقليد المقبول..... ٥٠
التقليد هو إتّباع عقلائي مبنيٌ على البصيرة..... ٥٢
يا للتصور الواهي والقول الخاوي..... ٥٤
يشترط في المرجع إضافة إلى الاجتهاد توفر عنصر التقوى..... ٥٤
عالم أضله الشيطان..... ٥٥
الغاية هي التنبّه والتفكّر..... ٥٧
تحصيل علم الدين من حق أصحاب القلوب الطاهرة..... ٥٨
رسالة الإمام السجاد (عليه السلام) لابن شهاب الزهري..... ٦٠
عودٌ على بدء..... ٦٥

التحلي بالأخلاق الفاضلة

وجوب تحصيل علم الأخلاق وجوبا عينيا..... ٧١
طَلَبُ الـعِلْـمِ فَرِيضَة عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ و مُسْلِمَة..... ٧٢
الفرق بين الخَلْـق والخُلُق..... ٧٣
أي العلوم أهم..... ٧٥
العلم في كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله)..... ٧٧

تنبيه! عندما يكون العلم وبالاً لا كمالاً ٧٨
ما اشده من إسراف! ٨٠
العلاقة بين العلوم الثلاثة ٨١
اغتنام الفرص ٨٦
هل يمكن تدارك ما فات من مقامات معنوية؟ ٨٧
تأمل في هذا المطلب ٨٨

تحذيرات من فكر المجددين المنحرف:

دين الحق واحد في كل زمان ٩٣
فكر المجددين الموبوء ٩٧
اختلاف حال الكفار تجاه دين الحق ٩٨

الاعتقاد بالإمامة

الاهتداء لدين الحق ١٠٥
الاعتقاد بالإمامة من ارسخ أسس دين الحق ١٠٦
معرفة الإمام المفترض الطاعة المنصوب من قبل الله ١٠٧
الدليل إلى الله تعالى لا يكون إلا ذلك الإمام الذي نصبه تعالى للناس هاديا ومرشدا ١٠٩
ادخلوا البيوت من أبوابها ١١١
أهل بيت رسول الله (عليهم السلام) باب حطة للمسلمين ١١٣
ثنائية التولي و التبري ١١٦
ما اعجب هذا؟ ١١٩
إحذر أيها المسلم! لا يشملنك هذا الحديث ١٢١

الوحدة الإسلامية لا تعني التنازل العقائدي ١٢٢
انتبه! لا تصدنك الشخصيات المزيفة عن معرفة الحق و أهله ١٢٣
التفتوا جيدا لهذا الحديث ١٢٥

تنبيهات وتحذيرات حول مذهب مدرسة الصحابة المنحرف

أيّها المسلم! لا تنخدع بخونة الإسلام وتعتبرهم خدمة الإسلام ١٢٩
الدعوة إلى الله مشروطةٌ بأذنه ١٣٢
الفتوحات ليست من مسؤوليّات النّبي (ﷺ) ١٣٥
هدف الإسلام إحياء روح الإيمان ١٣٨
انتبه أخي المسلم! لا يميلن قلبك للظالمين ١٤٠
كلام نوراني من عالم رباني ١٤١
من المهم أن نعرف ١٤٢

تحذيرات من مرض التصوف:

احذورا من التّصوّف ١٤٥
خلاصة برامج المتصوفة ١٤٧
أليست هذه بدعة؟ ١٥٠
التسليم للشيخ من اكبر البدع ١٥٢
عدة روايات يجب الالتفات إليها ١٥٦
تذكر واجب ١٥٧
احذروا وساوس إبليس ١٥٩
إياكم وسلوك طريق الضياع ١٦١